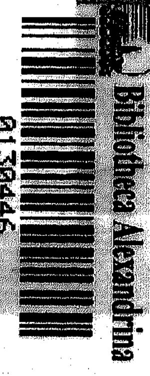
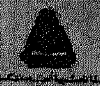
تاريخ المصريين ٣٩

قصة احتلال محمد على لليونان

١٨٢٤ - ١٨٢٧

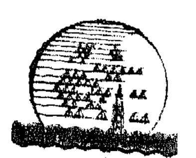
د. جميل عبيد





تاريخ المصريين

٣٩



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

رئيس مجلس الإدارة

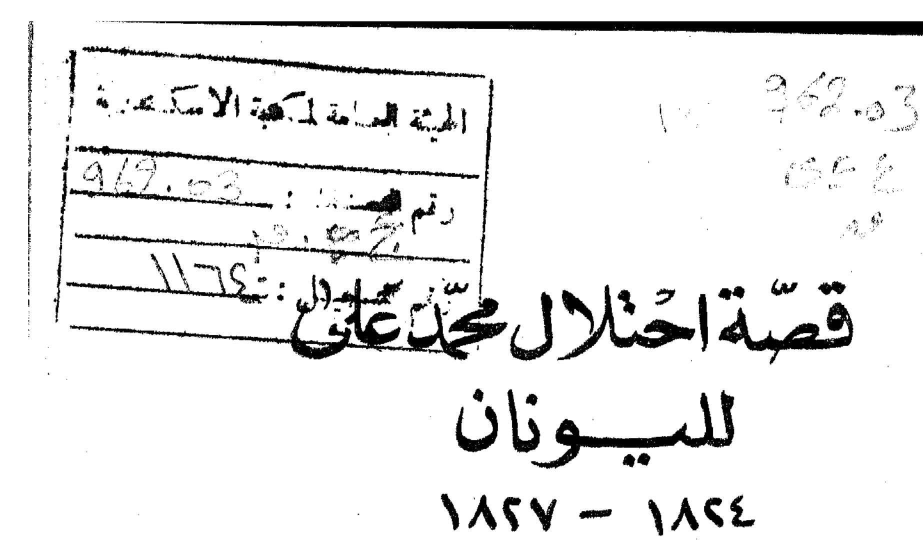
د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

عيد العظيم الشبلى



قصة احتلال محمد علي لليونان

١٨٢٤ - ١٨٢٧

تأليف

د. جميل عبيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٠

الاخراج الفنى وتصميم الغلاف : أسامه سعيد

تقـــديم

يسرنى أن أقدم للقارىء العزيز هذا الكتـاب الذى يتناول موضـــوعا فريدا من موضـــوعات التاريخ المصرى الحديث ، وهو فتح محمد على لليونان • ومن المعروف أن امبراطورية محمـد على قد امتدت الى الحجاز والسودان والشام ، وقد أراد الوصول بحدود مصر الى آخر بقعة تتحدث باللغة العربية ، الأمر الذى دعا البعض الى اعتبار ذلك ارهاصا بفكرة القومية العربية التى ظهرت فى القرن العشرين • ولكن من الثابت أن محمد على هو مؤسس دولة مصر الحديثة ، وهو الذى نقلها من العصور الوسطى الى العصر الحديث •

والكتاب الذى بين أيدينا يتحدث عن احتلال محمد على لبلاد اليونان ، وهو يبدأ بتتبع استراتيجية مصر فى عهد محمـــد على خطوة خطوة ، ويحاول تحليل موقف الدولة العثمانية ـ التى كانت مصر جزءا من امبراطوريتها الواسعة وولاية من ولاياتها ـ بازاء أملاكها فى أوروبا ، وازاء شعوب البلقان التى لم تكف عن الثورة عليها • ويركز الكتاب على الزعامة الثورية اليونانية ضد الأتراك

العثمانيين ، وكيف وقفت الدولة العثمانية عاجزة أمامها حتى لجأت الى مصر محمد على لانجادها • ثم يناقش الخطوات والمراحل التى انتهت باحتلال محمد على لليونان ، وما أعقب ذلك من تحرك أوروبى عسكرى لمواجهته ، ويبرز محاولة محمد على تجنب الصدام العسكرى مع الدول الكبرى لولا سياسة الحكومة العثمانيـــة الخرقاء التى دفعته الى الالتحام بالقوى الكبرى ، فكانت الهزيمـة فى موقعـة « نافارين » الشهيرة يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ • وقد كان بعد تلك التجربة القاسية أن أخذ محمد على يتطلع الى الاستقلال بمصر عن السياسة العثمانية وتوجهاتها ، وهو ما نجح فيه نجاحا محققا •

ومؤلف الكتاب هو الدكتور جميل عبيد ، الذى كان محاضرا للتاريخ الحديث بكلية التربية بجامعة عين شمس ، وعمل أستاذا للتاريخ الحديث بجامعتى البصرة بالعراق وقسنطينية بالجزائر • ومن مؤلفاته المنشورة « الحكم المصرى لجنوب السـودان » وهى رسالته للدكتوراه ، و « أمين باشـا » ، الحاكم الألمانى للمديرية الاستوائية من قبل مصر فى عهد الخديو اسماعيل ، وموقفه من الثورة المهدية وكتاب « المهدية فى السودان وموقف مصر منها » •

وأملى أن يساهم هذا الكتاب فى تنوير القارىء بفترة هامة من فترات تاريخ مصر الحديث •

رئيس التحـرير

أ •د• عبد العظيم رمضان

تعريف بالكاتب

فكرة عن الكاتب :

الدكتور جميل عبيد تخصص فى دراسة تاريخ مصر الحديث وعلاقاتها بافريقيا والدول الأوربية ·

عمل فى مصر فى وزارة التعليم ومراكز بحوثها ومحاضرا للتاريخ الحديث بكلية التربية/جامعة عين شمس ، كما عمل فى العراق أستاذا للتاريخ الحديث/بجامعة البصرة · وفى الجزائر أيضا بقسم العلوم الاجتماعية/جامعة قسنطينة ·

ألف كتاب المديرية الاستوائية تحت حكم مصر ، معتمدا فيه كمرجع أساسى على الوثائق الأصلية فى مصر ولندن · وترجم كتاب المهدية فى السودان · كما كتب

عدة بحوث عن دور الألمان فى وسط أفريقيا ، وبعثة جوبا المصرية فى عهد الخديوى اسماعيل ، والاتحاد الاقتصادى كمقدمة للاتحاد القومى بين الدول العربية ٠ كما قام بدراسة وثائقية محضة عن الجيش المصرى فى السودان ٠ هذا غير مجموعة أخرى من الكتب فى التاريخ والتربية وبعض المقالات التى نشرت فى مصر والبلاد العربية ٠

مقدمـــــة

جاء محمد على الى مصر ، ضمن الجيش العثمانى الذى دخلها عقب انســـحاب الحملة الفرنســـية ـ حملة نابليون بونابرت ١٧٩٨ ـــ ١٨٠١ ـ منها • جاء كقائد لاحدى الفرق الألبانية ، وكان المعروف اذ ذاك أن الفرق الالبانية هى أكثر الفرق تمردا وشراسة فى الجيش العثمانى •

وبعيدا عن كل ما قيل فيما بعد فى مدح محمد على وما أحيط به من أساطير تتعلق بطفولته أو شبابه سواء بحق أو عن تملق ، فانه لم يزد عندما جاء الى مصر عن قائد عادى بين قادة عديدين ، ولم يتصف بقدر يذكر من الثقافة أو العلم ، ومع ذلك فقد أصبح واليا أو حاكما على مصر وأسس بها ما عرف باسم الأسرة العلوية • فهل هى ضربة من ضربات الحظ تلك التى قذفت به الى هـــذا المركز ، أم ان هناك امكانات ومواهب خاصة اتصف بها من ذكاء وبصيرة ومرونة هى التى صعدته ••• أم هى المثابرة والقدرة على التخطيط والتصرف بحزم •• ؟ •

مما لا شك فيه ، أن الشعب المصرى العريق عانى الكثير خلال العهد العثمانى ، سواء من الترك أو من المماليك ، حتى هبط تعداده الى ما يقرب من المليونين فى أوائل القرن التاسع عشر • وكان من بين أسباب تلك المعاناة عجز الدولة العثمانية عن توفير الحد الأدنى من الخدمات للحفاظ على مستوى مناسب لمعيشة الشعب المصرى • والأكثر من ذلك عجزها عن دفع رواتب جندها ، وعندئذ لا يجد أولئك الجند من سبيل لاستيفاء حقوقهم سوى التمرد والعصيان ثم الانقلاب على الشعب المصرى ونهب أموال أبنائه والاعتداء على كرامته وتجارته بل وأرواح رجاله أحيانا • فالى من يلجأ المصريون وهم محرومون منذ زمن طويل من السلاح •• ، فان ثاروا أخمدت ثورتهم بقسوة •• ، فهل يلجأون الى المماليك ••• أولئك المتغطرسون المستبدون ، لقد سقطت صورتهم فى أعينهم ••• ورأوا بأعينهم كيف هزموا وولوا الادبار أمام الفرنسيين وأسلحتهم الحديثة •

استطاع محمد على ••• الرجل الأمى ••• أن يتفهم الوضع ••• ويلم بالموقف • وهكذا أمسك بطرف الخيط الذى يمكن له ان يسير على هداه • ان الأمر ببساطة انه اكتشف ان السبيل الوحيد لتهدئة رجاله ومنع تمردهم هو دفع رواتبهم • والدولة العثمانية عاجزة عن دفع رواتبهم ••• ، فماذا عليه لو تفاهم مع زعماء المصريين ، شيوخهم وعلمائهم على حل مناسب •• ، قدموا لى ما يقابل رواتب جندى وأنا كفيل بتهدئتهم ومنع شرهم عندما يتمردون ، عنكم • وهكذا كانت البداية فى العلاقة الطيبة التى قامت أولا بين المصريين ومحمد على • وهى علاقة أساسها تبادل المنفعة • حصل المصريون على الأمن واطمأنوا على تجارتهم وأملاكهم ، وفى المقابل سيطر محمد على على فرقته وكسب ولاءها •

وبدأ تحركه استنادا الى القوة التى تحققت له ، ولاء الجند ... ورضاء الشعب المصرى .

ومن هنا بدأ محمد على يرتقى السلم الذي أوصله الى الحكم والسلطة . وأصبح الوحيد الذى لديه امكانات الاستجابة لطلبات السلطان العثمانى ، بعد أن عجز الولاة السابقون عن ذلك ، فأضاف اليه بعد أن ولاه على القاهرة ولاية الاسكندرية وجمرك مصر . واستطاع التخلص من سطوة المماليك الذين أفسدوا البلاد فيما عرف تاريخيا باسم مذبحة القلعة . وعندما كلف باخضاع الوهابيين نفذ ما أنيط به باصرار عجيب وبمثابرة بالغة . واتخذ عقب ذلك ، خطوات واقعية امتدت ادارته بمقتضاها جنوبا ، الى السودان حتى منطقة السدود .

وخلال ذلك تفجرت الثورة فى بلاد اليونان ضد الدولة العثمانية . واستطاع الشعب اليونانى ، بضربات مفاجئة ومتتالية ، طرد العثمانيين من معظم النقاط العسكرية فى بلادهم . وذهبت محاولات الدولة ، رغم جميع المذابح التى اقترفتها ، فى سبيل استعادة سيطرتها على أحفاد الحضارة الاغريقية ، هباء بلا طائل .

وهنا استجار السلطان ثانية ، بتابعه على مصر محمد على لمساعدته ولانقاذ أملاكه ، فلبى النداء مستعينا بما وصل اليه الجيش المصرى الحديث التدريب من قوة ، ومنح القيادة لابنه ابراهيم الذى نجح فى اعادة جانب كبير من بلاد اليونان والجزر التابعة لها الى السيادة العثمانية والى الحكم المباشر لمصر .

ولكن هل تقف القوى الأوربية صامتة ؟ ان لكل منها أهداف وأطماع ولكل منها سياسة خاصة . فروسيا ترحب بكل ما يصيب تركيا من تمزق وتتعاطف مع اليونان مذهبيا ، ولكن يحد من

تدخلها التزامها بمبدأ احترام السيادة الشرعية للدول والملوك . وعندما رفع اليونان نداءهم لانقاذ الحضارة الاغريقية وأبنائها من الابادة على يد الأتراك البرابرة تأثرت دول أوربا الغربيـة وخاصة انجلترا وفرنسا بذلك النداء ، ولكن الى أى مدى ؟ ... فلابد من الحفاظ على تركيا .

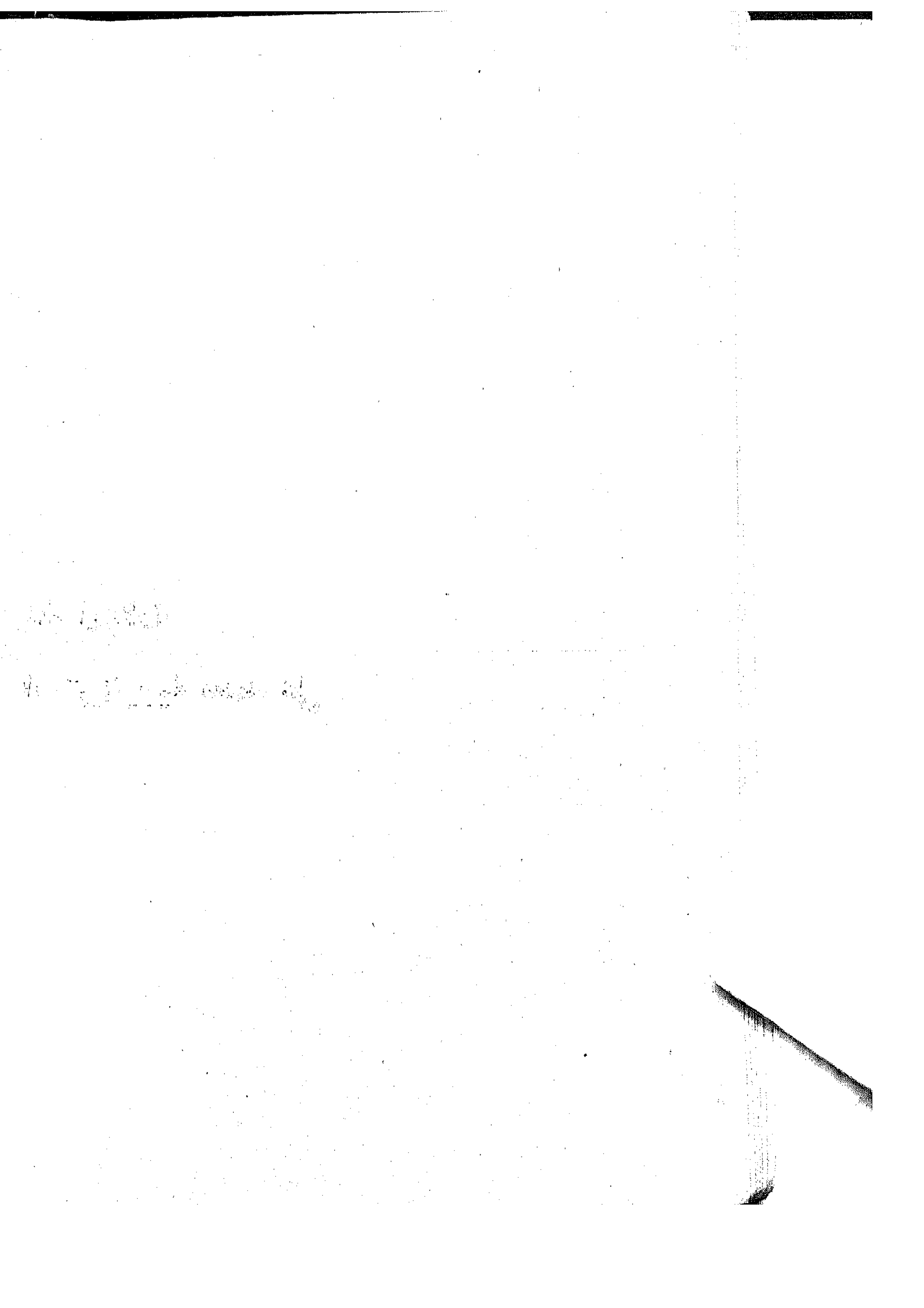
ولمـا كانت مصر بجيشهـا هى التى سيطرت واقعيا على بلاد اليونان ، فكان لابد لتلك الدول من التفـاهم أولا مع مصر ومع محمد على ، ومن ثم توافد المبعوثون عليه وكان عليه ان يدخـل فى مفاوضات ومساومات معهم وهو الأمى غير المتعلم . وأهداف محمد على صريحة وواضحة كما سنرى . هو يريد كسبا يعود عليه وعلى مصر . يريد أن يحقق لمصر قوة وثراء ، ويوفر لنفسه ولأسرته من بعده بقاء واستقرارا .

هـذه هى قصـة مصر محمد على واليونان . قصـة صراع عسكرى وسياسى ودبلوماسى لا على مستوى اليونان والترك فقط ، بل على المستوى الأوربى والعـالمى بمعنى آخر . ولم يكن ذلـك الصراع موجها ضد اليونان الا بقدر الحصول على مكاسب لمصر ، وبالتالى للأسرة التى تتربع على قمة ادارتها .

(دكتور جميل عبيد)

الفصل الأول

استراتيجية محمد على



استراتيجية محمد على

مصر فى العهد العثمانى

أصبحت مصر منذ عام ١٥١٧ ولاية تابعة للدولة العثمانية ، بعد أن دخلها السلطان التركى سليم الأول وعلق آخر سلاطينها المماليك ، طومان باى ، على باب زويله .

ومنذ ذلك التاريخ ، والسلطنة العثمانية تجرى على تعيين وال تركى من قبلها . وبدافع من عقدة الشك التى سيطرت على الادارة العثمانية والتخوف من استقلال أى من الولاة وانفصاله بولايته عنها ، عمدت الى السير وفقا لسياسة ادارية ، قوامها تبديل الولاة الذين تعينهم على كل من ولاياتها خلال فترة وجيزة تتراوح بين عام وثلاثة أعوام .

وفى ظل تلك السياسة ، جاء محمد على الى مصر عام ١٨٠١ كمساعد لأحد قادة الفرق الألبانيـــة التى دخلت مصر مع الجيش العثمانى ، بعد انسحاب الحملة الفرنسية منها ، وسرعان ما نجح فى ايجاد نوع من العلاقات ، غلب على بعضها الود والتفاهم ، مع

العناصر صاحبة النفوذ فى مصر ، وخاصة من بين أمراء المماليك وعلماء الدين وكبار التجار المصريين ٠

كان من عادة الفرق العثمانيـــة فى مصر أن تتمــرد وتثور كلما تأخر صرف رواتبها ، وأن تعيث فى البـــلاد نهبا وسلبا ٠ ووجد العلماء ، وهم زعماء الشعب المطحون ، من محمد على قلبا اتصف بالتقدير وعقلا متفهما فلجأوا اليه عدة مرات ، ليضع حدا لكل موجة من تلك الموجات الارهابية ، واستطاع بفضل وساطته مع شيء من الضغط ، تحقيق الكثير من مطالب الشعب ٠ فساندوه وأيدوه وشجعوه على تولى أمر البلاد بعد أن فشل عدد ممن سبقه فى الولاية فى ضبط أمورها ٠ وأرسل العلمـــاء لســلطان تركيا سليم الثالث يلحون فى اعطاء محمد على ولاية مصر أو القاهرة ، بدلا من ولاية جدة التى قررت له ، بفعل المؤامرات العثمانية لابعاده عن مصر ٠

وعلى غير ما جرت عليه العــادة ، استجاب السلطان لرجاء العلماء ، وذلك بعد ان فشل جميع الولاة الذين أرسلهم بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، فى ضبط أمورها وارسال نصيبه من خيراتها ٠

وهكذا تولى محمد على فى عام ١٨٠٥ على مصر والقاهرة ، كمجرد تابع أو موظف من موظفى السلطنة العثمانية ٠ ووفقا لما جرى عليه العرف فان بقاءه فى ذلك المنصب أو تلك الوظيفة لم يكن له أن يدوم فى أفضل الاحتمالات أكثر من أعوام ثلاثة ٠

أدرك محمد على وقــد تولى أمر مصر بعد العديد من الفتن العسكرية والثورات الشعبية ، ان لا بقاء له الا اذا نجح فى تهدئة الجنود وارضاء الشعب المصرى وعلمائه وتأمينهم ، بالاضافة الى كسب ثقة السلطان ٠ وثقة السلطان يمكن ان تكتسب اذا استطاع اغداق الأموال عليه والهدايا ٠ ولا سبيل للأموال اللازمة لكسب

السلطان وتهدئة الجند الا عن طريق الشعب المصرى ٠٠ وقد أيده هذا الشعب فى مقابل ما وعده به من تحقيق الأمن والعدل : وهكذا وضعت خطة محمد على التى نفذها بكل صراحة وبكل بساطة ٠٠٠ حقق الامن والسلام للشعب المصرى ، وفى المقابل ٠٠٠ حصل على أموال ٠٠٠ أغدق منها على السلطان ٠٠٠ ودفع منها رواتب الجند ما سبق منها وما لحق ٠ وبرغم ذلك فانه كان يعلم تماما ، أن رضاء السلطان لا ضمان له ٠٠٠ ، بل ان تأييد علماء مصر وتجارها وشعبها له بالاضافة الى انتظام الجند وطاعتهم له ، قد يكونان من عوامل اثارة الشكوك فيه وفى نواياه ٠

ولكن الأحداث ، التى أحسن محمد على استغلالها كانت من عوامل اطالة بقائه فى مصر فترة بعد أخرى ٠ فقد نجح فى عام ١٨٠٧ ، فى صد الحملة الانجليزية التى جاءت مصر بقيادة فريزر ٠ وقد هزمها ، بفضل تعاون قوة محلية مع المقاومة الشعبيه لأهالى رشيد ٠ فكان هذا النجاح ، بعد ما أصابه من توفيق فى تطويع مماليك مصر ، من عوامل اقناع سلطان تركيا بمدى ما يمكن ان يعود عليه من نفع اذا أبقى على محمد على واليا على مصر فترة أخرى ٠

اقتنع اذن السلطان بأنه وجد فى مصر ، التى تعرضت للغزو الأوربى مرتين ، من قبل فرنسا ثم من قبل انجلترا ، فى خلال فترة قصيرة ، الرجل الذى يستطيع ان يعتمد عليه ، فرضى عنه وضم اليه ولاية الاسكندرية كما ضم اليه ادارة الجمارك المصرية ٠ وبدأ يعد للافادة من هذا الرجل ، فى تحقيق أغراض السياسة العثمانية نحو ولاياتها المتناثرة فى الشرق والغرب ، والتى كانت تجيش بالثورات والفتن فضلا عن الحركات الانفصالية ٠ فالدولة العثمانية اذ ذاك ، كما قيل عنها ، هى رجل أوربا المريض ٠ ومع أنها كانت فى دور الاحتضار ، الا أنها بقيت على قيد الحياة ، ولم تحاول أى من الدول الكبرى اذ ذاك ، روسيا وانجلترا وفرنسا

والنمسا ، القضاء عليها ، تنفيذا لمبدأ التوازن الدولي بينها ، أى بفضل اختلاف تلك الدول وما نشب بينها من صراع معلن أو مستتر ، حول الكيفية التى يتم بها اقتسام أملاكها الشاسعة .

الحركة الوهابية

وكان من أهم تلك الفتن التى تفجرت داخل جسم الدولة العثمانية ما عرف باسم « الحركة الوهابية » التى قامت فى بلاد العرب . وقد بدأت تلك الحركة أولا ، فى صورة دينية هدفها تنقية الدين الاسلامى من بعض الشوائب التى علقت به ، ثم ما لبثت ان تحولت الى حركة سياسية عسكرية ، حين احتضنها آل سعود ومدوا نفوذهم على المراكز الاسلامية المقدسة ، خاصة مكة والمدينة ، ومنعوا اذ ذاك ورود الحجاج ، مما آثار ضيق العالم الاسلامى ووضع سلطان تركيا ، وخليفة المسلمين ، وحامى حمى الاسلام ، فى وضع العاجز عن حماية المدن الاسلامية المقدسة ، واقامة شعائر الحج بها .

وهنا ضغط سلطان تركيا على محمد على ، ليرسل قوة من مصر لاخضاع تلك الثورة . ولم يجد هذا بدا من ان يلبى أمر السلطان فى عام ١٨١١ . فدخل فى حرب مع الوهابيين ببلاد العرب استمرت حتى عام ١٨١٨ . وانتهت باعادة نفوذ السلطنة التركية الى تلك المنطقة ذات الحساسية الكبرى بالنسبة للعالم الاسلامى . وكان هذا هو أول ميدان خارجى عمل فيه محمد على وجرب فيه قوة مصر الناشئة ، ومدى قدرتها على تمويل الحرب . وقد نجحت التجربة ، واستطاع ان يؤدى ، على حساب مصر وشعبها وشبابها ، خدمة جليلة للسلطان العثمانى ، فضلا عن العالم الاسلامى ، الذى عرف بما لدى مصر من امكانات ، وبما له ـ أى لمحمد على ـ من قدرات .

وقد كان للحرب الوهابية فضل آخر له طابع ايديولوجى على آمال محمد على وأهدافه ، فمن المقطوع به انه ، بصفته واليا من قبل الدولة العثمانية خاضعا لنظمها القائمة على التبديل والتغيير السريع ، كان محروما من أى أمل فى الاستقرار ، برغم معاونته لها وبرغم نجاحه فى خدمتها ، وبالتالى فان عدم احساسه بالاستقرار ، لم يشجعه فى بادىء الأمر على اعداد سياسة خارجية بعيدة المدى ، تؤكد صالح مصر وتؤكد بقاءه فيها بعيدا عن خطر العزل أو النقل • وكان محمد على مدركا الى أبعد حدود الادراك ، لما جرى عليه العرف العثمانى اذ ذاك ، الا وهو استغلاله كأى وال آخر الى أبعد حدود الاستغلال ، واستنزاف الولاية التى ولى أمرها ، مصر الغالية ، وما أضيف اليها ، مثل الحجاز الطاهرة ، الى أبعد حدود الاستنزاف •

وبرغم كل تلك الاعتبارات ، فقد أتيحت لمحمد على فرصة ذهبية من جراء دخوله الحرب الوهابية • ذلك ان تلك الحرب اضطرته للعمل فى البحر الأحمر حتى مدخله من جهة المحيط الهندى ، بل واضطرته للعمل فى بعض جهات الخليج العربى ، ونظرا لوجود حساسية بالغة لدى انجلترا ، فى شأن جميع النقاط الواقعة على طريقها البحرى الى الهند ، فقد طلبوا من محمد على وديا ، تجنب العمل فى مناطق عدن والخليج العربى وسواحل الحبشة ، تحاشيا للاحتكاك بين قواتهم وقواته • وقد آثر محمد على فعلا تحقيق طلبهم وتجنب مواطن الاحتكاك بالأسطول البريطانى ومعاقله ، وخاصة ان ذلك الأسطول كان يواجهه من الأمام فى البحر الأبيض ، ومن الخلف فى عدن والخليج العربى • وبالاضافة الى ذلك العامل ، فانه تنبه الى ما يمكن ان يعود على أهدافه من كسب ، اذا استطاع ايجاد علاقات ود وصداقة ، أو بعبارة أخرى علاقات تجارية ومصالح مشتركة وخدمات متبادلة تربطه بانجلترا • وقد

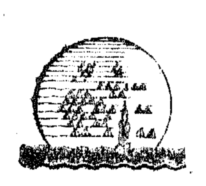
تتيح له الحصول على تأييدهما له لدى السلطان ، اذا أراد ذاك ازاحته عن مصر وولايتها أو اذا أراد عزله ٠

محمد علي والسودان

وقد عمل محمد علي أيضا على التوسع في السودان ، بحجة ظاهرة هي القضاء على أمراء المماليك الذين تجمعوا على حدود مصر وأطرافها وهددوا سلامتها ، وبالتالي سلامة السلطنة العثمانية وأملاكها التي لا تمثل مصر الا ولاية من ولاياتها ، وبهدف حقيقي وجوهري هو ٠٠٠٠ التحصل على موارد جديدة للمواد الخام خاصة الذهب المزعوم ، وطمعا في تجنيد قوة من السودانيين المحاربين تعوض خسائره في الرجال ، وتزيده قوة فوق قوة وترفع امكاناته في خدمة العالم العثماني الذي تمثل مصر أحد محتواه اذ ذاك ، فضلا عن تحقيق طموحاته الشخصية ٠٠

وهكذا عمل محمد علي في الأقطار العربية ٠٠٠ في شبه الجزيرة العربية ٠٠٠ وفي السودان ، طليقا من كل قيد ٠٠٠ لا دخل لحكومة السلطان في خططه ومشروعاته ، الا بقدر بذل القاب التشريف وسيوفه وجواهره ، وتنميق عبارات الاطراء له ولابنه ابراهيم قائد الجيش المصري ٠٠

لم تحاول القوى الأوربية الاصطدام به علنا كما انه كان يتحاشى ذلك كما رأينا ٠ فالسياسة الفرنسية اذ ذاك كانت أقرب الى الجمود والهدوء منها الى النشاط والحركة ، والسياسة الانجليزية ، برغم عدم ارتياحها الى استعانة محمد علي بمستشارين فرنسيين ، الا انها كانت لا تميل كثيرا الى التدخل في شئونه ، الا بقدر تنبيهه الى الابتعاد عن مناطق نفوذها وتجارتها الى الهند ٠ وهكذا سنحت الفرصة لمحمد علي لينظم وحدات جيشه المصري ، وينشيء أسطوله البحري ويزيد موارد مصر وموارده ٠



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الفصل الثاني

الثورة فى البلقان

الثورة فى البلقان

الحكم العثمانى لشبه جزيرة البلقان

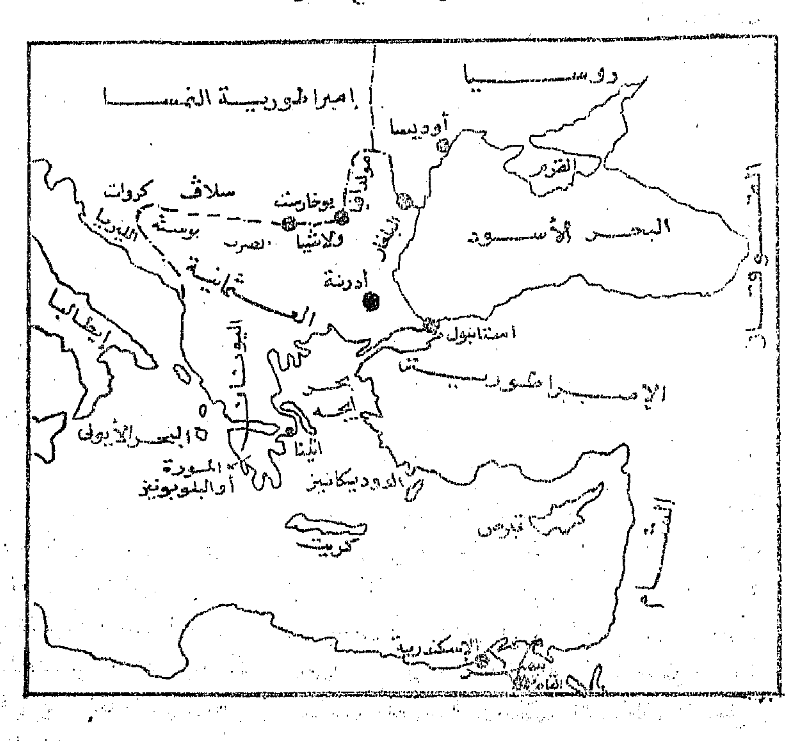
الباحث التاريخى فى ثورة البلقان بصفة عامة وثورة اليونان بصفة خاصة ، يواجهه بعض الغموض وتعوزه الكثير من الوثائق أو على الأقل البيانات . فالقليل من المواطنين فى ذلك الاقليم كانوا يحسنون الكتابة اذ ذاك ، وبالتالى لم يوجد العدد المناسب من القادرين أو الراغبين فى تسجيل الأحداث تسجيلا تاريخيا نزيها أو خاليا من المؤثرات الشخصية والعاطفية ، الا اذا استثنينا فئة رجال الدين الارثوذكس ، وكان مما يعيبهم ان اهتمامهم تركز على الأحداث المتعلقة بالشئون الدينية ، دون الاهتمام بمتابعة الأحداث العامة السياسية والاجتماعية بدقة أو انتظام . أما الفئة العارضة من السياح والزوار القادمين من الخارج ، فقد اكتفت بسرد ما انفعلت به من أحداث بارزة ، جرت فى المدن الكبرى بطريق الصدفة فى فترة سياحتهم أو زيارتهم .

وقد استخدم هذا المحصول الضئيل من المعلومات فيما بعد ، بواسطة مؤرخين أو كتاب من البلقان ، شكلوه فى ضوء عواطفهم القومية ، التى نقمت على الغزاة الأوائل لأوطانهم من العنصر

التركى . فكانت الحصيلة الطبيعية لكل ذلك ، رسم صورة مؤلمة ومزرية للأوضاع الاجتماعية بالبلقان ، خلال فترة الحكم العثمانى من بدايته الى نهايته . ولكن الدراسة المتأنية والعادلة ترينا ، ان الشعوب التى خضعت للحكم العثمانى فى البلقان ، لم تكن أسوأ حالا من مثيلاتها اذا أخذنا من النظام الطبقى السائد ، معيارا للقياس والمقارنة .

لقد مارس الأتراك سيادتهم فى البلقان بصور متباينة ، قد تختلف فى شكلها من اقليم لآخر ، وان تشابهت غالبا ، من حيث وجود وسيط ، يصل بينهم وبين الشعوب المحكومة ، بحيث لم يكن التركى ظاهرا بصورة مباشرة فى جميع الأوقات . ففى ألبانيا والجبل الاسود Montenegro ، اكتفى الترك بالحصول من أولئك الجبليين العتاة على الجزية ، ترسل سنويا الى اسطنبول دون أن يظهر فى بلادهم من العنصر التركى أو السادة الأتراك ، الا قلة نادرة بين الحين والآخر . أما الموانى الهامة التابعة للامبراطورية العثمانية ، مثل ميناء دوبرو فينيك Dubrovnik (وهو يدخل حاليا ضمن حدود يوغوسلافيا) وهو مركز تجارى عظيم الأهمية والثراء على ساحل الأدرياتيك ، فاكتفى بدفع ما عليه من جزية ، دون أن يعوق ذلك حريته فى منافسة البندقية فى المكانة والثراء . أما اقليمى مولدافيا وولاشيا الرومانيان (يعرفان أيضا باسم اقليمى الأفلاق والبغدان) . فقد احتفظا بشخصيتهما ، وبما لأمرائهما من مكانة كطبقة ارستقراطية . أما حكامهما فكانوا يختارون من عائلات يونانية محددة ، يطمئن السلطان العثمانى الى ولائهما له ويطلق على أفرادها اسم طبقة الفاناريوتيس Phanariotes . أما فى اليونان فمع وجود طبقة عليا من رجال الدين ومن يدور فى فلكهم ، الا أنه اذا تركنا رجال الدين جانبا فمن الصعوبة بمكان ، التعرف بين اليونانيين على طبقة خالصة تمثل

الأملاك العثمانيــة فى أوربــا
أوائل القرن التاسع عشر



ارستقراطية لها عراقتها ، الا اذا وجدت في بعض الجزر الايونية . وقد جرى العرف هنا على ان يكون حكام اليونان من العنصر التركى ، وهؤلاء كانوا يدعون أعيان اليونان للتشاور معهم .

هناك أيضا ظاهرة أخرى اتصف بهـا مجتمع البلقان تحت الحكم العثمانى ، هى الاختلاف الواضح والتباين الكامل بين مجتمعه في المدن ومجتمعه الريفى . فالمليون تركى أو الاكثر أو الأقل الذين استقر أجدادهم فى البلقان منـذ القـرن الرابع عشر ، تركزوا على وجه العموم فى المدن الكبرى ، مثل أثينا وسالونيك وبلغراد وأحيانا فى بعض المدن الأصغر . ولكنهم تجنبوا الأرياف والمناطق الجبلية ، وشكلوا بالنسبة لتعداد الاقليم اليونانى بالذات ، على سبيل المثال ، فى أوائل القرن التاسع عشر نحو العشر . ومع انهم امتلكوا أكثر من نصف أراضى اليونان ، الا انهم ثبتوا على استقرارهم فى المدن، واندمجوا فى مختلف الأنشطة المدنية . كما ارتبطوا بالحاميات العسكرية وخدماتها ، وأشرفوا على الصناعات الحرفية ومارسوا نشاطات اقتصادية وتجارية . وفى الأعمال التجارية انضم لهم بعض اليهود واليونان . أما الريف فقد ترك كلية للمواطنين الأصليين سواء أكانوا من اليونان والصرب أو البلغار والرومان . وهكذا وجد فى البلقان ذلك الفارق الكبير ، بين التكوين الاجتماعى للمدينة والتكوين الاجتماعى للريف ، برغم أن الأخير مفروض فيه أن يمثل الخلفيـة الطبيعيـة للمدينة ، ليس فقـط فى أساليب الحيـاة وتقاليدها مما قد نجده فى بعض أنحاء أوربا بل أيضا فى الأصول الجنسية واللغوية لكل منهما . ويزداد هذا الفارق وضـوحا اذا أجرينا تلك المقارنة بين سكان المدينـة وسكان المنـاطق الجبلية بالبلقان .

ومن الصفات الاجتماعية الأخرى المميزة للبلقان ، أن طبقة الزراع ، كانوا يدفعون ضريبة لسادتهم سواء أكانوا من مواطنيهم

الأصليين أم من الأتــراك المتأقلمين (ونقصــد بهم أحفاد الأتراك الغزاة الذين تأقلموا فى بيئة البلقان وعاشوا فى مدنها الكبرى) . وذلك فى حدود عشر المحصــول تقريبــا ، بينما كانت حــكومة السلطان تحصل على مبلغ اجمالى محدد من كل اقليم من أقاليم البلقان . ولذا فان احتمال الاحتكاك كان أكثر ورودا بين الزراع وسادتهم ، مما هو بين المواطنين بمختلف طبقاتهم ، وبين الادارة التركية أو الحكم العثمانى .

ومن المظاهر البارزة أيضــا فى الادارة التركية بالبلقــان ، ندرة استخدامها لنظام السخرة ، كما جرى عليه الحال فى النظام الاقطاعى بأنحاء أوربا .

وهناك أيضا ظاهرة أخرى تثير الشك ، حول صحة الصورة القاتمة التى أعطيت أو أذيعت عن الادارة التركية أو الحكم العثمانى للبلقــان . وهــذه الظاهرة نجدهــا بشكل واضــح فى الشعب اليونانى ، فقد كان الباب العالى يخصهم بكثير من الوظائف العليا فى الدولة ، فمنهم كان كاتب سر الأسطول ومترجم الباب العالى وحكام ولايتى الأفلاق والبغدان حيث يسود الجنس الرومانى . ولما كان المذهب المسيحى السائد فى الجانب الأوربى من الدولة العثمانية هو المذهب الارثوذكسى وفق الكنيسة الاغريقية ، فقد عهد اليهم الباب العالى بالاشراف على الشئون الدينية للمسيحيين فى أنحاء الدولة ، وعين منهم بطريقا عاما مقره القسطنطينية . ومن الواضح انه كان فى حاجة فعلية لكسب رضاء الكنيسة الارثوذكسية ورجالها وتقوية نفوذها ، حتى تستطيع وأبناء مذهبها الوقوف كحاجز . فى وجه الاتجاهات الغربية والانتشار الكاثوليكى ، الذى تتزعمه روما ، والذى نظر اليه الباب العالى باعتباره رأس الحربة فى خطة الزحف الأوربى نحو أملاكه فى البلقان . ولا نغفل أيضــــا مدى ما أظهره اليونانيون من مهـــارة فى الفن البحرى ، وفى النقل

التجارى والتبادل التجارى بين دول وموانى البحر الأبيض • الأمر الذى شجعهم على بناء الكثير من السفن التجارية ، ثم انهم سلحوا تلك السفن بدعوى الدفاع عن أرواحهم وتجارتهم من قراصنة البحر • ولم تتعرض لهم تركيا فى كل هذه الأنشطة ، الا بقدر الحصول منهم على مال للخزانة ، بالاضافة الى الحصول على العدد اللازم من بحارة الجزر اليونانية لالحاقهم بالاسطول العثمانى •

ومن كل ما سبق نجد ان لدينا الكثير من الأسباب المنطقية ، التى تدعونا للشك فى تلك الصورة المعتمة أو القاتمة التى الصقت بالادارة التركية والحكم العثمانى لولايات شبه جزيرة البلقان ولشعوبها •

ومع ذلك فمن الخطأ ان نأخذ كلية الجانب الآخر من التصور للوضع ، بحيث نقول ان سكان البلقان مارسوا حياة اتصفت بالسعادة أو بالنعومة والاستقرار تحت سيادة الاستعمار العثمانى • فمما لا شك فيه انهم توارثوا ذكريات مؤلمة لأحداث مرعبة وقعت لأجدادهم خلال الغزو العثمانى الأول لبلادهم ، منها أعمال الابادة الجماعية والارهاب ومصادرة الأملاك والأقوات ، مما أشارت اليه الكثير من الكتابات • كما أن شعوب البلقان تعرضت قبل بداية القرن التاسع عشر ، لكثير من المظالم التى كانت تتزايد طرديا مع تدهور أوضاع الباب العالى واضمحلال حكومته • ولا يجوز لنا أيضا أن ننكر ، ان عنصر الأمان لم يكن متواجدا أو على الأقل لم يكن متوافرا بصفة متصلة ، لدى سكان البلقان بمختلف شعوبه ، خاصة مع وجود عناصر منحرفة فى الجيش العثمانى ، من أمثال الجند الانكشارية ، الذين لم يكن لهم ضابط أو رابط يحول بينهم وبين أهوائهم وشطحاتهم ، من سلب ونهب بل ومن اعتداء على الأنفس والحرمات • ولم تكن الادارة العثمانية العليا سواء من حكومة أو حتى سلطان بقادرة على ضبط سلوكهم أو الحيلولة بينهم

وبين نهب المواطنين والسكان ، خاصة اذا انقطعت رواتبهم أو تأخر صرفهـــا من قبل المسئولين ، وهو الأمر الذى كان كثير الحدوث بصورة شبه عادية بين الفينة والأخرى خـلال عصر الامبراطورية العثمانية • وليس هذا بأمر غريب عن أذهاننا نحن المصريين ، فكتابات الجبرتى سجلت الكثير من مثل تلك الأحداث والشطحات التى صدرت عن الجند الانكشارية فى مصر ، كلما تخلفت الدولة العثمانية أو والى مصر من قبلها عن صرف رواتبهم •

ثورة شعوب البلقان :

لعله من الاثارة بمكان ، ان نقول ان الحركات والثورات التى ظهرت فى الأقاليم التابعة للامبراطورية العثمانية فى أوائل القرن التاسع عشر ، وخاصة فى الجانب الأوربى منها انما كانت من بين الارث الذى أخذته تلك الأقاليم عن الثورة الفرنسية ، وعن مبادئها ، ••• الحرية ••• الاستقلال ••• المساواة ••• الاخاء ••• سيادة الشعب ••• الخ • ثم ان نجاح الثورة الفرنسية وظهور نابليون كثمرة من ثمارها ، وما حققه من انتصارات ، كان دليلا ملموسا فى نظر شعوب العالم ، على ان تلك المبادىء صادقة وانها تحمل فى بذورها عنصر النجاح والانتصار • وما دام الأمر كذلك فلم لا تقتدى الشعوب بتلك الثورة ولم لا تعتنق مبادئها وتحذو حذوها•

وقد ظهر ذلك بوضوح فى شبه جزيرة البلقان • اذ أخذت الحركات القومية المحلية فى الظهور والانتشار فى أماكن مبعثرة منها ، بين الصرب والبلغار واليونان وبين الألبـــان والرومان • هدفها تطبيق ما تنامى الى سمعها عن تطورات الثورة الفرنسية •• الخطوات التى اتبعتها ••• والنتائج التى حققتهـــا ، وذلك على بلادها وبين شعوبها • ولم تكن الخطوة الأساسية لذلك الا بالتخلص من الاستعمار التركى ، والسـيادة العثمانيـــة ، ثم التمتع بحياة

قومية حرة مستقلة ، السيادة فيها للشعب وممثليه • تلك الصورة الجميلة من أنماط الحياة ، التى تبلورت وكبرت فى أذهان تلك الشعوب ، كحلم أشبه ما يكون بأحلام اليقظة ، يأملون ان يتحقق ويشرئبون بأعناقهم الى رؤية ما ستكون عليه الحياة من جمال بعد تحقيقه • حيث سيستنشقون نسيم الحرية والسيادة بعيدا عن السيادة التركية التى أطبقت على أنفاسهم ؛ ما يقرب من أربعة قرون وبعيدا عن مخاوف أهوائهم واستبدادهم •

ومع ان شعوب البلقان كانت من أصول مختلفة جنسيا ولغويا واجتماعيا ، بل وأحيانا من أصول متنافرة • الا انه كانت تجمعهم الرغبة العارمة ، فى تقليد الثورة الفرنسية وتطبيق مبادئها ، وأتباع خطواتها فى بلادهم • ولم يكن من سبيل عملى لذلك الا باعلان الثورة •

الموقف العثمانى :

واقع الأمر ان الامبراطورية العثمانية ، كانت فى أوائل القرن التاسع عشر ، بمثابة جسم منتفخ يعيش على قلب منهك • فأملاكها متسعة وولاياتها عديدة والشعوب التى تشرف على حكمها متنوعة ومتباينة • ففى شبه جزيرة البلقان هناك الصرب واليونان والألبان والرومان وسكان القرم والجبل الأسود والبوسنة وبعض امتدادات لعناصر سلافية ، وفى الشرق عرب الحجاز واليمن والشام وأهل العراق والفلسطينيين والمصريين ، وفى شمال أفريقيا سكان ليبيا والواحات وتونس والجزائر والمغرب ، وذلك غير بعض أنحاء القوقاز وجزر البحر الأبيض وخاصة قبرص وروودس وبحر ايجه والادرياتيك • ولكن عدم الانضباط بل والتفكك ، كان الظاهرة التى غلبت على تلك الامبراطورية المتسعة ، بسبب ضعف الادارة

المركزية ، واتجاه معظم تلك الولايات والشعوب الى الافلات من قبضة السيادة العثمانية ، بزعامة رؤسائها أو حكامها أحيانا ، أو بفضل ظهور النعرة القومية والوطنية بين طبقاتها .

ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة ، اذا ذكرنا ان العامل الفعال الذى أدى مع الوقت الى تمزق الامبراطورية العثمانية لم يكن خارجيا بقدر ما كان داخليا . وان الدافع الأول الذى أدى الى الانفجار الداخلى ، وبالتالى الى انهيار السيادة العثمانية ، خاصة فى البلقان ، لم يكن الا رغبة شعوبه فى أن تطرح عنها نير الاستعباد التركى ، وتتمتع بحياة قومية مستقلة ، اقتبست عن الثورة الفرنسية شعارها ومواصفاتها .

وكان الخطأ الذى وقعت فيه الدولة العثمانية ، انها عجزت عن تفهم العناصر المؤثرة على الشعوب التابعة لها ، أو تتفهم ما طرأ على العالم وعليها من اتجاهات . ولم تحاول التعامل مع تلك الشعوب بشىء من المرونة والتراضى ، أو الاستجابة ولو جزئيا لأحلامها . بل نظرت للأمور نظرة اتسمت بالضيق والانغلاق ، فما ثورة الوهابيين الا نوع من الالحاد والخروج على الدين ، وما تمرد « الرعاية المسيحية » فى شبه جزيرة البلقان الا نوع من التطاول الذى لا يمكن قبوله أو احتماله أو السكوت عنه . ولذا لم يسع الباب العالى ازاء أحداث البلقان وانتفاضاته ، الا ان يسبقها باقامة بعض المذابح فى نقاط متفرقة للارهاب وادخال الرعب على نفوس المواطنين . وهذه المذابح كانت تتصاعد تصاعدا طرديا ، مع ازدياد قواه وهنا . ولذا لم يكن لهـا من تأثير سوى زيادة لهيب الثورة اشتعالا ، وسوى اصرار الثوار على المضى الى النهاية فى ثوراتهم .

ثورة الصرب :

اندلعت الشرارة الأولى بين شعوب البلقان بهدف التخلص من سيادة الأتراك العثمانيين ، والحصول على الحرية من قبل شعب الصرب • وقد مر الصراع بين الصرب والأتراك العثمانيين بعدة أدوار ، تداخلت فيهما مؤثرات نابعة عن صراعات دولية أوربية وصراعات عثمانية داخلية • ذلك ان سليم الثالث سلطان تركيا في أوائل القرن التاسع عشر ، كان راغبا في اجراء اصلاح جذري في النظم الادارية والعسكرية في تركيا • وقد أتاح له صلح أميان وهو ما عرف باسم « سلام أميان » هذه الفرصة الذهبية • ولكن سرعان ما أحاطت به المشاكل • ذلك انه بمقتضى احدى المعاهدات وهي معاهدة سيستوفا Sistova ، تقرر اعادة بلغراد ـ عاصمة يوغوسلافيا الحالية ـ والأقاليم التابعة لها للسلطان • ولكنه تقرر أيضا بمقتضى تلك المعاهدة ، عدم السماح للانكشارية ، الذين كانوا يسيطرون في السابق على تلك العاصمة وملحقاتها ، بالعودة الى حكمها • وذلك تجنبا لشرهم وتفاديا لما كان يثيره أسلوبهم الاستبدادي وما كانوا يقترفونه من مظالم ، من اثارة للمواطنين وقد أتاح الحاكم الذي أرسل من قبل سليم لاقليم الصرب ، حكما مستنيرا اتصف بالعدل وسادة السلام وبدت فيه بوادر التقدم ، مما لم يحظ بمثله الاقليم على مدى قرن كامل • ولكن سليم اضطر تحت ضغط الانكشارية والرغبة في تسكينهم وارضاء بعض زعمائهم ، الى السماح لهم بالعودة الى بلغراد عام ١٧٩٩ • وما كاد الانكشارية يصلون الى بلغراد ، حتى قتلوا حاكمها السابق الذكر غيلة ، ثم أعلنوا خروجهم عن طاعة سليم • واقتسم أربعة من زعمائهم اقليم الصرب فيما بينهم • وسرعان ما تتابعت انتهاكاتهم ، وفق ما جرت عليه عادتهم ، لأمن وسلامة المواطنين الصربيين من مسيحيين ومسلمين على السواء ، الى أن حدثت الانتفاضة الحتمية

للصرب فى عام ١٨٠٤ · ولم تكن ضد السلطان بقدر ما كانت ضد الانكشارية ·

وقد أمكن لثوار الصرب ، تحت قيادة قرة جورج أو جورج الأسود Kara George · وهو سليل أسرة جورفيتش الصربية العريقة · وبفضل ما حصلوا عليه من تأييد وتعزيز من النمسا ·· أمكن لهم مطاردة الانكشارية والتخلص منهم ·

وهنا تصور سليم أن بامكانه — وقد قضى على الانكشارية فى بلغراد — أن يعيد سيطرة الدولة العثمانية عليها · ولكن قادة الصرب أصروا على أن يتولى مندوب من قبل النمسا ، الاشراف على ترتيب الأوضاع باقليمهم وتحقيق الاستقرار فى ربوعه · وأكثر من ذلك طمع الصرب فى ان يحصلوا من أسرة الهابسبورج على مزيد من العون ، اذا احتاجوا لتأمين كيانهم الجديد بالسلاح والرجال · ولكن سليم اعترض بشدة على أى تدخل أجنبى فى شئون امبراطوريته الداخلية · مما اضطر النمسا الى التخلى عن نداءات الصرب ، حتى لا تتسبب فى نقض معاهدة معترف بها ، فى الوقت الذى تنادى فيه باحترام أصحاب الحقوق الشرعية ، والتمسك بالمعاهدات الدولية · عندئذ تحول الصرب الى روسيا واستنجدوا بها ، ولكنها لم تستطع الاستجابة لهم لذات العوامل التى حالت بين النمسا وبين التقدم لمساعدتهم · وعندئذ تشجع الباب العالى وأرسل قواته ضد الصرب ولكن هؤلاء وقد اعتزوا بما حققوه من انتصارات سابقة نجحوا فى وضع نظام لحكم ذاتى يستند الى انتخاب نيابى ، واستطاعوا ايقاع الهزيمة بالجيش الذى أرسله السلطان ·

وقد قدمت الصراعات الدولية خدمة طيبة لثوار الصرب فان اندلاع الحرب فى عام ١٨٠٦ بين روسيا وتركيا ، أقنع الأولى بالتخلى عن موقفها السلبى ازاءهم فقدمت لهم جانبا لا بأس به من المدد

والسلاح استطاعوا بفضله تطهير كافة اقليمهم من الوجود التركى المسلح · ومن ذلك الحين ولفترة غير قصيرة ، دخلت مشكلة الصرب وما يمكن أن يكون عليه وضعهم القانونى ، فى الدوامة الدولية ، كعنصر من عناصر الصراع السياسى والدبلوماسى ، فيما بين القوى الأوربيـة المختلفة وبعضهـا البعض ، وفيما بينهـا وبين الدولة العثمانية من جهة أخرى ·

حقيقة نجح الصرب فى التخلص من العثمانيين بفضل ثورتهم وما حصلوا عليه من بعض العون من الخارج · ولكن من الواضح أيضا أن وضعهم القانونى لم يستقر نهائيا ، لمجرد انتصارهم على الانكشـارية أو القوات التركية التى أرسلهـا السلطان لمقاومة حركتهم · والواقع ان الاستقلال سواء الذاتى أو الكامل للصرب أصبح من الآن وصـاعدا تحت رحمة الأهواء الدولية أو الصراع الدولى ·

فعندما نجحت بريطانيا فى انشاء التحالف الأوربى الثالث ضد فرنسا ، وفى ذات الوقت حاولت التدخل فى شئون مصر مؤيدة لأمرائها المماليك ضد السلطان · نقمت تركيا عليها ، وكان رد الفعل الطبيعى لها هو أن تأخذ الجانب السياسى المضاد لانجلترا ، فرحبت بالمساعى التى كانت تبذلها فرنسا منذ وقت سابق لكسب صداقتها · وفى ذات الوقت هادنت روسيا بل حاولت ايجاد علاقات سـلام معها ، حتى تتجنب احتمالات غزوها لأملاكهـا ، وتحد من اتجاهها لاثارة القلاقل ضدها ، فى أقاليم البلقان وبين الشـعوب الخاضعة لها وخاصة الصرب واليونان ·

ولكن ما كادت فرنسا تحقق انتصاريها الساحقين فى موقعتى أوسترلتز وأولم ضد التحالف الأوربى ، حتى أعلنت تركيا صراحة الوقوف الى جانب فرنسا · ووجدت لديها من الشجاعة ما سمح

لها بتنفيذ سياسة جديدة مضادة لروسيا ، التى ساعدت الصرب في ثورتهم ، ومضادة لانجترا التى أيدت مماليك مصر ضد تركيا.

كان من دلائل السياسة التركية الجديدة انها قررت التخلص من حاكمى ولاشـــيا ومولدافيا الرومانيين لأن ميولهما روسية ، واستبدلتهما بحاكمين آخرين يتشيعان لفرنسا ويتعاطفان معها . وازاء ذلك لم تقف روسيا مكتوفة الأيدى ، بل سارعت الى غزو أقاليم الدانوب ، وذلك فى عام ١٨٠٦ ، فأعلنت الدولة العثمانية الحرب عليها ، وأغلقت بوغازى البوسفور والدردنيـل فى وجـه سفنها . أما بريطانيا فقد حاولت مساعدة حليفتها الحالية روسيا ، فأرسلت أسطولا محدود العدد رابط أمام مدخل الدردنيل أولا ، وطلبت من سليم ابعاد الخبراء الفرنسيين من بلاده ، وأيضا ابعاد سيباستيانى ممثل فرنسا لدى تركيا ، كما طلبت فتح المضايق أمام جميع السفن . وازاء اصرار سليم على رفض طلبات انجلترا اجتاز الأسطول البريطانى بقيادة الأميرال داكورث Duckworth الدردنيل ، ودخل بحر مرمرة حيث رابط فى مواجهة العاصـــمة اسطنبول وصـــوب مدافعه نحو قصر السلطان (٢) . واذ رأى السلطان سليم استحالة المقاومة فى جبهتين ، جبهة مولدافيا حيث اخترق الجيش الروسى دفاعاته وقوبل بالترحاب من شعبهـا ، وجبهة بحر مرمرة حيث يقف أسطول بريطانى أمام عاصمته وأمام قصره ، لم يجد بدا من تكليف رجـاله بالتفاوض . ولكن ممثل فرنسا سيباستيانى انتهز فرصة المفاوضات الجارية وما أتاحته من سكون وهدوء ، واستطاع بفضل تعاون مجموعة من المهندسين الفرنسيين ، اصلاح الحصون المطلة على المضايق وترميم دفاعاتها . وهنا رأى داكورث من الحكمة ان ينسحب قبل ان تضيق الحلقة عليه وتغلق المضايق فى وجه اسطوله . ولم يمض عام ١٨٠٦ ويأتى

عام ١٨٠٧ الا وقد جاءت الأنباء بهزيمة الجيش الروسى هزيمة ساحقة أمام نابليون فى معركة فريدلند ٠

ومما سبق نرى ان الصراعات الأوربية وأحداثها ساهمت فى تعزيز الدولة العثمانية وتحسين وضعها ٠ الأمر الذى كان يمكن أن يتيح لها فرصة الانفراد بالصرب والقضاء على حركتهم ٠ فها هو الأسطول البريطانى يولى هاربا من القرن الذهبى ، وها هى حملة فريزر البريطانية تنسحب من رشيد بعد ما أصابها من فشل ٠ وذلك بالاضافة الى هزيمة الروس الساحقة وانسحاب معظم قواتها المرابطة على حدود البلقان ٠

ولكن أحداثا داخلية أدت الى هدم كل ما كسبه الموقف التركى من تحسن دولي ، وأتاح المزيد من مجالات التفكك الداخلى فى الدولة العثمانية ، وأنقذ الى حين أيضا الصرب وثورتها ٠ ذلك ان ظهور نحو خمسمائة من المهندسين الفرنسيين ورجال المدفعية ، الذين قدموا الى تركيا بقصد تعزيز الاستحكامات فى منطقة المضايق واستكمال دفاعاتها ونصب مدافعها ، حتى تستطيع مواجهة ما قد يستجد من تهديد أوربى بريطانى أو روسى ، أثار شكوك قادة الجيش فى اسطنبول ٠ وعندما صدر أمر عال بتحريك بعض الحاميات التركية المرابطة على البوسفور وتعديل مواقعها ، ثارت ثائرتهم وطلب الانكشارية اقالة الديوان فورا ٠ وحيث أن رواتبهم كانت متأخرة فسرعان ما أعلنوا تمردهم ، وعزلوا سليم الثالث ٠ ووضعوا صهره مصطفى الرابع على عرش السلطنة فى مايو ١٨٠٧ ٠ أما التهم التى وجهت لسليم لتبرير عزله ، فهى انه حاول أحداث انقلاب ضد الجيش العثمانى ، بالاضافة الى انه لم يستطع انجاب وريث له بعد سبع سنوات من حكمه ٠ ولا يهمنا من السلطان الجديد مصطفى الرابع الا انه كان العوبة فى يد من ولاه العرش ٠ كما انه طرد الضباط والخبراء الفرنسيين وعقد هدنة مع روسيا ٠

هذه الهدنة أوردته حتفه لأنها أتاحت الفرصة للفرق العثمانية المرابطة على الدانوب فى مواجهة الروس لكى تحرك مواقعها وتعود الى العاصمة · حيث تقدمت فى يوليو ١٨٠٨ الى قصر السلطان بمطالب عديدة · وقبل ان تتمكن هذه القوة من اختراق أسوار القصر اغتال مصطفى الرابع سلفه سليم خشية اعادته لعرش السلطنة كما أصدر أمره بالقضاء على ذات أخيه محمود حتى لا يبقى من أصحاب الحق الشرعى فى اعتلاء عرش السلطنة أحد سواه · وما كادت تلك القوة تدخل القصر حتى عزلت مصطفى الرابع واعتقلته وولت أخيه عرش السلطنة تحت اسم محمود الثانى وذلك بعد ان وفقت فى الكشف عن المكان الذى اختبأ فيه تحت مبانى القصر وفى أحد الأفران المهجورة فيه !!

نجح محمود الثانى ، بتأييد وزيره بايراكتر Bayrakter الذى سبق له تولى قيادة الفرق التى أشرنا الى عودتها من الدانوب بعد عقد الهدنة مع روسيا ، فى وضع النواة الأولى لاعداد فرق جديدة وفقا للنظام الجديد أو وفقا للنسق الأوربى · وعندئذ تعجل ذلك الوزير الخطوة التالية وسمح لرجاله الذين جاءوا معه من الدانوب ، بالعودة الى مواطنهم الأصلية فى البلقان · وهنا خلا الجو للانكشارية ، فأعلنوا احتجاجهم على « النظام الجديد » ، وتمردوا على السلطان محمود الثانى الذى يسعى هو ووزيره لادخاله ، وبيتوا النية على اغتياله والتخلص منه · ولم يجد هذا وسيلة لانقاذ نفسه سوى ان يقدم لهم وزيره ذبيحة وضحية ، محملا اياه مسئولية ادخال النظام الجديد ، ومتنصلا أمام المتمردين من أى شأن له بتلك السياسة · وهكذا قتل الوزير ، ونشبت حرب أهلية فى شوارع العاصمة استمرت نحو اسبوع ، عمت فيها الفوضى واغتيل خلالها السلطان السابق مصطفى الرابع · ولم يبق بعد ذلك من نسل السلاطين العثمانيين حيا سوى السلطان

محمود الثانى وأصبح توقف أى محاولة لادخال النظام الجديد للجيش العثمانى أمرا غير مشكوك فيه ٠

من الناحية الدولية تصالحت تركيا مع بريطانيا بمقتضى معاهدة الدردنيل ، التى قضت باعادة الوضع الى ما كان عليه فى المضايق ، من حيث اغلاقها في وجه السفن الروسية ، مما أثار الأخيرة فانتقمت لنفسها باحتلال قواتها لمناطق عدة على الدانوب ٠ وأرغمت تركيا على التنازل لها عن بسارابيا فى مقابل ايقاف غزوها للأراضى التابعة لتركيا ٠ وهكذا خسرت تركيا فى عام ١٨١١ وبمقتضى معاهدة بوخارست اقليما من أغنى الأقاليم التابعة لها خاصة فى انتاج القمح ٠

وجاءت حملة نابليون ضد روسيا فى عام ١٨١٢ بعد ان تنازلت تركيا عن بسارابيا ٠ ولم يفد محمود الثانى الندم على قبول تلك المعاهدة أو طرده لوزيره واعدامه للمفاوضين الأتراك الذين وقعوا وثيقة التنازل عن بسارابيا لقيصر روسيا ، اذ سبق السيف العزل ٠

وعلى كل فان تلك المعاهدة أبقت على تبعية الصرب اسميا للسلطان الذى وعد بترك الشئون الداخلية بها تحت ادارة مواطنيها ٠

وقد اضطر الروس ازاء زحف نابليون على بلادهم ، الى سحب بعض الفرق الروسية التى كانت ترابط فى بلغراد لحمايتها ، مما جعل الدفاع عن اقليم الصرب مكشوفا ٠ ورأت تركيا ألا تفلت من يدها تلك الفرصة الذهبية ٠ فسعت الى استعادة سيادتها الفعلية على ذلك الاقليم ، دون ان تبالى بتعاقداتها أو تعهداتها السابقة ٠ ومن ثم فتحت صفحة أخرى من النضال والمعارك والمذابح وهزم قرة جورج فى عام ١٨١٣ بعد ان تزعم قصة كفاح دامت نحو ثمان سنوات واضطر للفرار من وطنه ٠

ولكن فى عام ١٨١٥ تغيرت الصورة العامة فى أوربا ، فقد

سقط نابليون نهائيا ، واستعادت روسيا مكانتها كواحدة من القوى العظمى التي كان لها دور خاص في اسقاط نابليون ، بحيث تضاءل أمامها مركز أعدائها الدولي وخاصة تركيا ·

وفي هذه الظروف المواتية ، جدد منافس قرة جورج في زعامة الصرب · وهـو ميلوش أوبرينوفتش Milosh Obrenovitch اشعال نيران الثورة الصربية · وفاز بتأييد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ لمنح الصرب استقلالهم الداخلي · وسمح لهم بالاحتفاظ بسلاحهم مع اعطائهم الحق في ادارة شئونهم الداخلية بواسطة برلمان منتخب · ولم يبق للسلطان سوى سيادة اسمية ، وخاصة ان معظم الضرائب التي كانت تجمع من صربيا كانت تبقى بها · كما اعترف بميلوش هذا فيما بعد أميرا على الصرب ·

وهكذا فان حصيلة الخمسة عشر عاما الأولى من القرن التاسع عشر ، بالنسبة لتركيا ، كانت تقلصا للامبراطورية العثمانية ، بعد نجاح أول حركة قومية في البلقان ، بحصـول الصرب على استقلالهم شبه الكامل وبعد اقتطاع بسـارابيا ــ أغنى أقاليمها بالقمح · كما انها لاقت تدهورا وانهيارا داخليا ، وذلك باغتيال اثنين من سلاطينها بالاضافة الى أحد وزرائها المصلحين ، بفعل ثورات عسكرية ، والفشل في ادخال النظام الأوربي الحديث في الجيش العثماني · وفي ذات الوقت أينعت روح الحرية وانتشرت بذور القومية ، في أنحاء البلقان بكثير من السرعة ، بعد أن وجدت في انتصارات الصرب وتدهور الأوضاع في الدولة العثمانية ، خير مشجع لها ·

حركة على باشا والى يانينا الالبانية :

من الصعب ان نعتبر حركة على باشا والى يانينا للاستقلال عن الدولة العثمانية ، حركة قومية بحتة ، وان كان هدفها اقتطاع

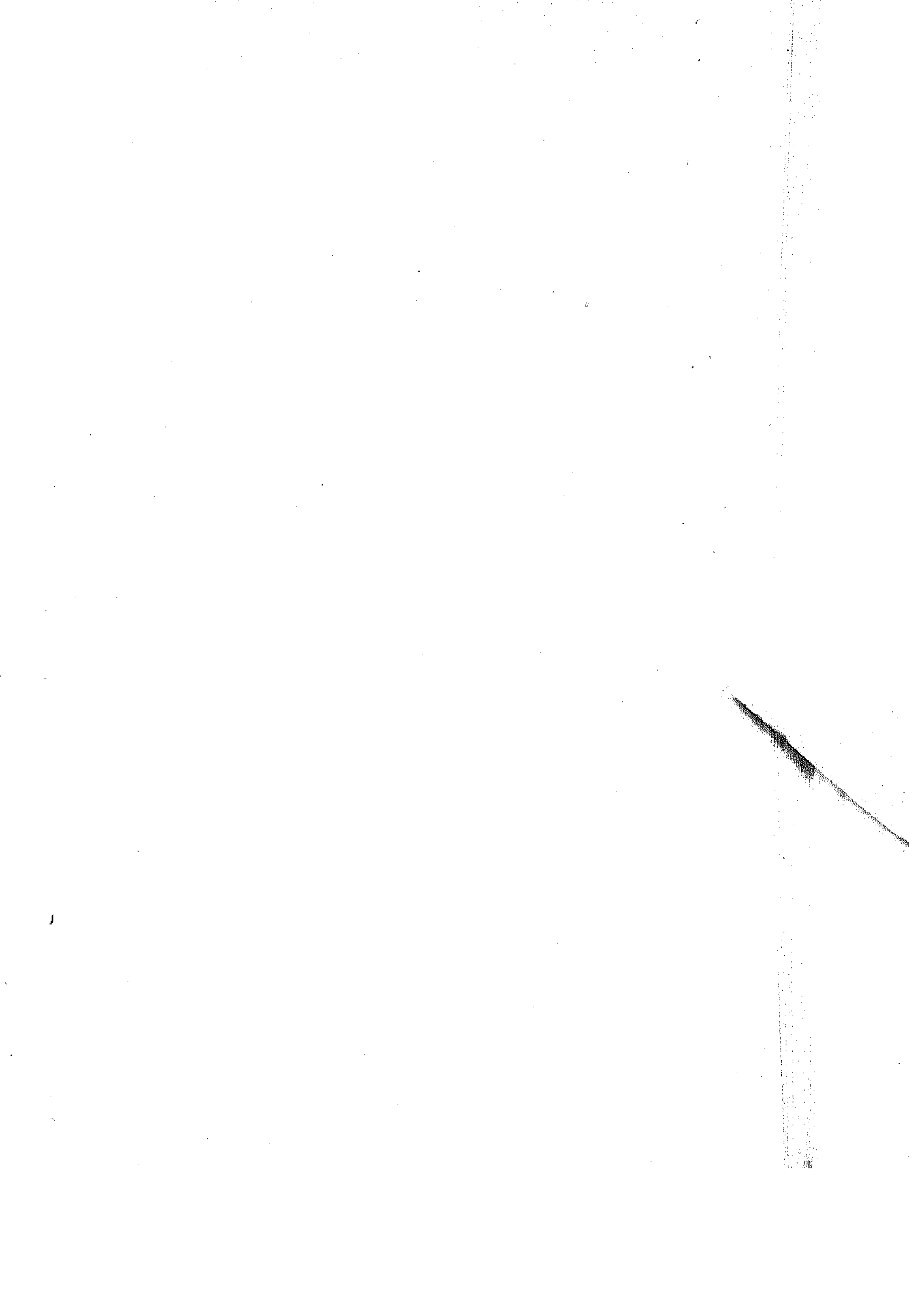
منطقة تابعة للامبراطورية العثمانية والاستقلال بها وشعبها عنها . الا اننا نهتم بهذه الحركة لسببين ، أولهما ان على باشا الذى حكم الاقليم الألبانى لمدة ثلاثين عاما متصلة حكما انفراديا ، مارس خلاله الكثير من مظاهر الاستقلال شبه التام ، مثل الاتصـــال المباشر بنابليون وبالحكام البريطانيين للجزائر الايونية التابعـة لانجلترا دون الرجـوع للســلطان ، كان برغم احتفاظه بمظاهر العظمـة والفخفخة التقليدية فى الشرق ، متأثرا بالاشعاعات الصادرة عن النهضة الأوربية الحديثة ، وبمبادىء الثورة الفرنسية ، وكان يكن احتراما كبيرا وتذوقا واضحا للآداب الاغريقيـة العريقة ، والنظم اليونانية القديمة التى سيطرت فى آواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر على خيال أوربا ، فهو اذن وبفعل المؤثرات التى سيطرت عليه ، كان بحركته يمثل محاولة للحصـــول على استقلال قومى لاقليمه ، وهو بذلك اختط نهجا أشبه ما يكون بالنهج الذى اتخذه محمد على بعد ذلك ببضع سنوات ، ووفق فيه الى حد لا بأس به ، ربما لأن ظهيره فى هذا النهج كان الشعب المصرى ولم يكن الشعب الألبانى . وثانى السببين ان حركته كانت بمثابة فاتحة للثورة اليونانية أو مقدمة لها ، فقد أسهم بها ، بصرف النظر عما أصابها من فشل فيما بعد ، فى تشجيع الشعب اليونانى وحفزه على التحرك وعلى اعلان ثورته . كما أسهم فى شغل القوات التركية ، مما أتاح لثوار اليونان فرصة الانتصـــار فى كثير من المواقع على القوات التركية التى كانت معسكرة فى اليونان ، بفضل ما أصابها من ضعف بعد تناقص أعدادها .

وقد بدأ الصراع بين محمود الثانى وعلى باشا فى عام ١٨٢٠ ، عندما شعر الأول بأن الثانى قطع شوطا بعيدا فى طريق الخروج عن حدود التبعية . وسلك مسلكا أقل ما يقال فيـه أنه اتصف بالاستقلالية . ولما كان من طبيعة محمود الثانى ان يكون البادىء

دائما بفتح النيران على كل من يخشاهم دون تدبير ودون تفكير فى النتائج المتوقعة فانه أمر بعزل ابن على باشا من ولاية شبه جزيرة المورة ـ والمورة هى الجزء الجنوبى من بلاد اليونان الذى قامت فيه حضارة اسبرطة فى العهد الاغريقى ـ ونقله الى ولاية أصغر بقصد تقليص نفوذه وتحجيم امكاناته هو وأبيه اذا شاءا التمادى فى اتجاهاتهما الاستقلالية • وكان فى ذلك الاجراء مهانة غير قليلة للابن وطعنة لكرامة الأب ونفوذه • فدبر على باشا مؤامرة للتخلص من أعدائه من مشيرى السلطان ورجال حاشيته ، ممن كان دأبهم الدس له والوقيعة بينه وبين العرش العثمانى • الا ان المؤامرة كشف أمرها ، فعزل السلطان على باشا وعين عدوه المذكور بديلا له على ولايته • وهنا لجأ على باشا الى استثارة اليونان والألبان ليقفوا الى جانبه ضد الدولة العثمانية • ولكن السلطان سحب جانبا من الفرق التركية المرابطة فى أنحاء اليونان ، ووجهها ضد على باشا فى اقليم ابيروس لتأتى له برأسه • وترتب على ذلك تخفيض القوة التركية التى كانت ترابط فى أثينا وتريبولتزا وغيرهما من المدن اليونانية الكبرى الى الحد الأدنى • مما ترتب عليه ترك تلك المدن بدون دفاعات مناسبة فى وجه أى حركة شعبية محتملة • وفى عام ١٨٢٢ وعندما نجحت الفرق التى جمعت من انحاء اليونان فى التغلب على على باشا ، والاتيان برأسه وبرؤوس أبنائه وأحفاده على أطباق من الفضة !! ••• لقصر السلطان ، كان زمام الموقف قد أفلت من يد الدولة العثمانية فى مواجهتها لحركة اليونان الثورية •

الفصل الثالث

ثورة اليونان



ثورة اليونان

الخلفية الفكرية للثورة :

يمكن دائما أن نقول ان الخلفية التى استندت اليهـا حركة اليونان الثورية هى مبدأ الحرية الذى نشرته الثورة الفرنسية ، مع مسيرة جيوشها وانتصاراتها فى أنحـاء أوربا المختلفة (٣) والتى أزاحت أمام تقدمها الأمراء والأشراف وما لهم من سيادة اقطاعية ، والملوك والأباطرة ومالهم من حقوق الهيـة مطلقة ، وأحيت الروح القومية بين الشعوب التى هضمت انسانيتها وغلبت على أمرها • ومع أن جيوش الثورة الفرنسية لم تصل الى بلاد اليونان الا أن شباب اليونان ممن درسوا فى الخارج وخاصة فى فرنسا ، كان لهم فضل نقل جانب كبير من فكر الثورة الى بلادهم •

ومن الطريف أن نذكر هنا أن أحرار أوربا ، كانوا يحاولون خلال القرن الثامن عشر ، محاكاة الفكر الاجتماعى والثقافى للاغريق القدمـاء ، وكانوا ينظرون بكثير من التقدير والاعجـاب للأفـكار السياسية التى وضعت وطبقت خلال ذلك العصر • ومن ثم فعندمـا اندمج شباب اليونان مع الأوربيين ثقافيا ، مع بداية القرن التالى ،

لم يكن تأثرهم فى الواقع الا بارثهم العريق وبتراثهم الذاتى • ومن ثم نشروا بعودتهم الى موطنهم ، نهضة فكرية عريقة الأصـــل ، وصحوة ثقافية متعددة الســـمات ، وذلك بين مجتمعات البلقان المتباينة ، وخاصة المجتمع اليونانى ، ابتداء من أوديسا Odessa شمالا حتى أطراف اليونان جنوبا وشرقا ، وسـاحل الادرياتيـك غربا • وأمكن قبل عام ١٨٢٠ ، نشر أكثر من ثلاثة آلاف كتاب باليونانية الحديثة • وهـذه لم تشمل فقط ترجمة لأعمال كبـار المفكرين الأوربيين والمصلحين ، من أمثال فولتير Voltaire ، وشيلى Schilley ، وجوته Goethe ، ومونتسكيو Montesquieu بل وأيضا مقتطفات وأجزاء من أدب الاغريق الكلاسيكى فى صورة مبسطة كانت فى متناول فهم اليونانى المعاصر اذ ذاك •

وكمـا تأثرت فرنســـا بأفكار وكتـــابات فولتير وروســو ومونتسكيو ، فان اثنين من كبار المفكرين اليونان اللذين درسا فى أوربـا وعاشـا بعض الوقت بعيـدا عن بلادهم ، وهمـا ريجـاس Rhegas ، وادامنتيوس كوراس Adamantios Koraes أثرا أيضا فى الفكر اليونانى • الأول فى كتاباته التى دعا فيهـا مواطنيه الى امتشاق الحســام ، والى تكوين جمعيات تتولى جمع الأموال والسلاح لاستخدامهما فى التخلص من الســيادة التركية ونيرها • والثانى كورياس ، الذى اقتبس فى كتاباته الكثير من فكر أفلاطون وروسو • فقال ان أى صـورة من صـور السلوك الردىء للمواطن هى مظهر من مظاهر الظلم • كمـا ذكر أن كل مواطن سيىء ما هو فى باطنه الا تركى قبيح • وبالاضافة الى ما بثه من كرة للترك ومن محاولات لنشر الفكر الأوربى بين اليونان ، فانه أشاد بالأعمال البطولية التى وردت فى تاريخ الاغريق القديم • وأثار ذكريات مجدهم التليد وحضارتهم العريقة ، التى أهال عليها الاستعمار العثمانى منذ القرن الخامس عشر رماد النسيان • كما

انه حفز الاتجاه الى بناء اليونان الحديثة ٠ وأدان الألفاظ الدخيلة على اللغة ونادى بتطهير اليونانيــة منها ومن الألفـاظ العـامية والبربرية ، التى تسربت الى اللسان العريق واندست بين عباراته ٠

ان هذه النهضة الفكرية والثقافية التى طبعت بطابع قومى ، لم يكن من الممكن أن تؤتى ثمارها دون التواجد الواقعى والتعزيز الكبير للكنيسة اليونانية الارثوذكسية (٤) ، التى استطاعت الحفاظ على الشخصية المميزة للمجتمع اليونانى ، والتى استخدمت مراكزها والنوادى الملحقة بها كبؤر يتجمع فيها الثوار اليونان ، كما انها وفرت خدمة أخرى هى الابقـاء على وسائل الاتصال بين الأقاليم اليونانية والعالم الخارجى ٠ ويجب ألا نغفل دور المدارس اليونانية التى وجدت فى كثير من الأقاليم والمدن بهدف أصلى ، هو اعداد رجال الدين وتدريبهم ٠ اذ انضم الى تلك المدارس والتحق بهـا الكثير من الشباب ، بهدف تعلم القراءة والكتابة والحصول على قسط من التعليم والثقافة ٠ وأمكن عن طريق هؤلاء نشر جوانب من الفكر الثورى فى كثير من أنحاء اليونان ٠

ومع انتشار التعليم بين اليونان استطاع البعض ممن وصل الى مستوى علمى وثقافى لا بأس به ، الالتحاق بدراسات متقدمة فى ايطاليا وفرنسا ٠ واتخذوا من البندقية ثم من فيينا بعد سقوط البندقية ، مركزا لنشر الثقافة اليونانية ، حيث كانت تطبع الكتب اليونانية التى انتشرت فى كثير من أنحاء البلقان وحيثما تواجد اليونانيون ٠

وقد أتاح تدهور الادارة العثمانية الفرصة ، لظهور الكثير من الجماعات اليونانية الخارجة على القانون ، ممن عرفوا باسم كلفتس Klephts (٥) وتقمص هؤلاء الكلفتس صورة روبن هود ودوره ، فى مهاجمة الترك وانقاذ اليونان المستضعفين ، من عمليات السلب والنهب التى كانوا يتعرضون لها خاصة من الانكشارية ٠ وقـد

قوبل كثير من أعمال هؤلاء الكلفتس بالرضاء والتأييد من قبل المواطنين · وانضم لهم كثير من المخاطرين والفدائيين · وأوجدوا بذلك نواة الجماعات من حملة السلاح ، تجيش نفوسها بالحماس والرغبة ، فى انقاذ أبناء الوطن من الاستبداد وأخذ الثأر لهم من ظالمهم · كما أن حياة الجزر والشواطئ الساحلية ، دفعت كثيرا من اليونان للاتجاه الى البحر والتجارة الخارجية ، أسوة باجدادهم الاغريق فى ماضيهم العريق · وكانت معرفتهم بعادات البلاد الموجودة بالشرق الأوسط ، مثل بلاد الشام ومصر — ولغاتها ، ذات فائدة كبرى فى انجاح نشاطهم التجارى ، بين الموانى التركية والموانى الأخرى المطلة على البحر الأبيض (٦) · فحصلوا على مكاسب كبيرة ، وبلغوا قدرا طيبا من الثراء ، خاصة خلال الحروب النابليونية · مما أتاح لهم فيما بعد امداد الثوار بالمال اللازم لاستمرار حركتهم ومقاومتهم · كما انهم سلحوا سفنهم التجاريه برضاء الباب العالى ، بحجة واقعية هى الدفاع عن سفنهم وتجارتهم فى وجه قراصنة البحار · وعندما حانت الفرصة وشبت الثورة ، استخدموا هذه السفن المسلحة ، فى قتالها وادخال الرعب على قلوب البحارة الترك ·

حركة الأمير اليونانى اسكندر ابسلنتى :

وفى عام ١٨٢١ ، جاءت الأنباء بقيام أمير يونانى ، هو اسكندر ابسلنتى Alexander Ypsilanti ، بالثورة ، وهو الابن الأكبر لحاكم مولدافيا وولاشيا · وقد عمل فترة غير قصيرة فى الجيش الروسى وفقد ذراعه اليمنى فى أحد معاركها الحربية · وكان من العوامل التى أهلته لقيادة الثورة فى البداية ، أصله النبيل وصلته الكبيرة بقيادة روسيا ، فضلا عن شجاعته الشخصية وكفاءته ، مع ما غلب عليه من حماس شديد لفكرة الاستقلال ومبدأ الحرية ·

ارتبطت تلك الحركة الثورية بالجمعية السرية ، التى عرفت باسم هيتريا Fnmke Hetaeria اى باسم « جمعية الاخوان » التى وضعت نواتها فى عام ١٨١٤/١٨١٥ فى أوديسا . وشعارهـا هو « استقلال امارات البلقان كلها وطرد الأتراك من أوربا واحياء الدولة البيزنطية القديمة » . وقد تزايد عدد المنضمين لعضوية تلك الجمعية بصورة واضحة بعد عام ١٨١٨ ، خاصة فى الجنوب أى فى بلاد اليونان برغم أن نشاتها كانت فى الشمال . ولعل مرجع تكالب الشباب على الانضمام الى فروع تلك الجمعية هو الغموض الذى أحاط بنشأتها وبزعمائها فأسماء القادة غير معروفة ، وأساليب التنظيم أشبه بتلك المتبعة فى الجمعيات الماسونية ، وخاصة من حيث تقسيم الأعضاء الى مستويات سبعة . وكان من عوامل الجذب لها أيضا ما أشيع من أن القيادة الفعلية لتلك الجمعية انما هى لروسيا ، وان تكن مستترة . واعتقد كثيرون أن كابود ستريا س الوزير اليونانى الأصل لدى بلاط قيصر روسيا ، على رأس تلك الحركة . وعندما رفض هذا الوزير أو تجنب التورط فيما عرض عليه من قيادة الحركة بصورة علنية ، آلت القيـادة العليا للأمير السابق الذكر اسكندر أبسلنتى .

نصح هذا الأمير من قبل أنصاره ، بتركيز الجهد الثورى فى المنطقة الجنوبية من البلقان ، وخاصة جنوب اليونان وبعض الجزر . ولكنه خالف رأيهم ووجه كل جهده الى اقليم مولدافيا فى الشمال ، لقربه من حدود روسيا التى يمكن الحصول منها على بعض المساعدات والامدادات ولأن أسرته كانت تتولى الحكم بها . واكتفى بارسال بعض الأعوان لاثارة سكان الجزر اليونانية وجنوب اليونان الذى عرف باسم « البلوبونيز » أو « شبه جزيرة المورة » . وبنى أبسلنتى آماله على أن قيصر روسيا سيخف لنجدته فور اعلانه للثورة .

لم يستطع القيصر اسكندر التورط فى تلك الحركة التى شبت فى مارس ١٨٢١ ، رغم تعاطفه معها لأنها قامت فى الوقت الذى كان ملوك أوربا المطلقو السلطة ، ومنهم قيصر الروسيا ، يأتمرون بالحركات القومية ويتألبون عليها لقمعها . وكانوا جميعا واقعين تحت تأثير سياسة مترنيخ وزير النمسا الأول ، بطل مؤتمر فيينا ، مبتدع مبدأ احترام الحقوق الشرعية وأصحابها ، ومنفذ نظرية عدم المساس بسلطة الملوك وأملاكهم ، والمسئول الأول عن تطبيق العهود والمواثيق والالتزام بسريانها .

وهكذا اضطر القيصر للتخلى عن تلك الثورة ، التى شبت فى « ياسى » Yassi من أعمال ولايتى الافلاق والبغدان (ولاشيا ومولدافيا) قرب بوخارست الحالية عاصمة رومانيا ، لانها قامت فى نفس الوقت الذى كان فيه القيصر ، وباقى ملوك أوربا يتفاوضون فى مؤتمر ليباخ ، للاشتراك فى اخضاع ثورة شعب نابلى ضد ملكيها . فكان من التناقض أن يأتمر بالثورات القومية فى نابلى وغيرها ، ويشد أزر ثورة البلقان . ومن ثم ترك ابسلنتى ، واخوانه منفردين أمام تركيا . فجردت عليهم جيشا عبر الدانوب واستطاع اخضاعهم خلال ستة أشهر دون جهد كبير . وفر ابسلنتى الى المجر ، حيث اعتقلته حكومة النمسا فى يونيو عام ١٨٢١ . ونال مترنيخ شرف استضافة الثائر النبيل سليل الاغريق فى أحد سجون النمسا لمدة سبع سنوات . وعندما أفرج عنه خرج مقهورا ولم يمتد به العمر بعد ذلك لأكثر من عام واحد . وكانت وفاته أيضا بالنمسا حيث لم يعد ثانية لموطنه .

لم تكن هذه هى نهاية الثورة اليونانية بل بدايتها فان أعضاء الجمعية السرية ، جمعية الاخوان ، تجاوز عددهم الآن المائتى ألف . وأصبح هدفهم الأول والأخير هو تحقيق المبادىء التى وضعتها جمعيتهم الا وهى طرد الأتراك العثمانيين من بلادهم ، وتحرير جميع

الأقاليم الاغريقية الأصل وضمها الى الأمم الكبرى ، أو بمعنى آخر اعادة الامبراطورية البيزنطية القديمة بكامل حدودها ، أى بأملاكها فى آسيا الصغرى ، وبعاصمتها القديمة فى القسطنطينية ·

وهكذا قامت بعد تلك الحركة المسرحية ، كما وصفها بعض الكتاب التى قادها مغامر من مولدافيا ، ثورة قومية عارمة ، فى جنوب اليونان فيما يعرف بشبه جزيرة الموره ، وفى الجزر اليونانية ببحر ايجه ·

أثبتت هذه الثورة جديتها وصلابتها ، كما آثارت بين الأوربيين ذكريات الحضارة الاغريقية وأمجادها العريقة · ووجدت من شعوب أوربا وشعاراتها ، وعلى رأسهم لورد بيرون Byron الانجليزى (٧) وشلر وفيكتور هيجو الفرنسى كل تعاطف ومساندة · وردت تركيا على تلك الحركة بابادة الآلاف من رجال الجالية اليونانية فى اسطنبول · ولم يكن لذلك من أثر سوى اذكاء لهيب الثورة اليونانية وانتشارها خاصة فى بلاد الموره (جنوب اليونان) بعد جزر بحر ايجه وكريت · وأكد اليونان اصرارهم على نوال الحرية والاستقلال بابادة الحاميات العثمانية المنبثة فى أنحاء بلادهم · واتخذوا لهم شعارا ··· « لابقاء لتركى فى اليونان » · ومن ثم أوقعوا القتل بعشرين ألفا من الترك المقيمين فى أنحاء البلاد · ولم ينج من بقى من الترك الا عن طريق الاحتماء بالحاميات فى الحصون التركية · ولكن تلك الحاميات حوصرت واضطر معظمها الى التسليم ان صلحا أو عنوة · وقرب تريبولتزا أمكن لقوة يونانية قوامها ثلاثة آلاف هزيمة فرقة تركية تعدادها نحو خمسة آلاف · وترتب على ذلك تسليم ذلك الموقع بل وأيضا تسليم ميناء نافارينو · وفى كلا الموقعين لم يتورع ثوار اليونان عن خرق كل قاعدة ومن ذلك انهم قتلوا نحوا من ثمانية آلاف بين تركى ويهودى فى تريبولتزا ·

وفي خلال ثلاثة أشهر سقطت كل المدن جنوب الخليج الذى تقع عليه أثينا في يد الثوار هذا اذا استثنينا بعض القلاع الحصينة .

وفي ١٣ يناير ١٨٢٢ أعلن عن أول محاولة ، لتكوين حكومة وطنية من الثوار لكل بلاد الاغريق . الا ان حكومة السلطنة العثمانية قابلت انتصارات الثوار وأعمالهم الطائشة بأعمال أكثر طيشا كما أشرنا لذلك وأصبح من المعروف انه قتل يونانى واحد على الأقل فى مقابل كل تركى أوقع به الثوار . ولكن الثورة لم تتوقف بل امتدت الى الجزر اليونانية ، ورجالها أهل بحر وصيد . فسلحوا سفنهم وأخذوا يهاجمون السفن التركية ويقتلون رجالها وينهبون ما بها أو يستولون عليها وما الى ذلك من أعمال القرصنة . حتى دب الهلع في قلوب البحارة الترك . ومع ان السلطان كان بمقدوره ان يأخذ نفسا مقابل كل تركى يقتل فى بلاد اليونان وفى جزرها ، الا انه عجز عن استرداد ولايته ، التى سلبت منه بمثل تلك السهولة .

أما محمد علي فقد قابل أنباء تلك الاضطرابات دون انفعال ، وبالأسلوب الذى رأى انه يتفق مع مصلحته ومع مصلحة مصر . ولم يتعرض لسلامة أي يونانى يقيم فى مصر ويساهم فى خدمتها أو فى نهضتها . وذلك برغم ما أحيط به علما بشأن النشاط الثورى لبعض الجمعيات اليونانية فى القاهرة والاسكندرية . ولم يحاول منع أى منهم من الابحار لوطنه والانضمام الى ثوار بلاده . بل انه أطلق فى ذلك الحين ، سراح بعض اليونان الأسرى الذين ارسلهم اليه داى الجزائر .

محمد على واخضاع ثورة كريت :

ضاقت الأمور بالسلطان العثمانى فولى وجهه عام ١٨٢٢ شطر مصر ومحمد على . استنجد به لاخضاع ثورة كريت ، وفى المقابل عرض عليه ولايتها بعد اخضاعها . انها صفقة لا بأس بها فى نظر محمد على ولذا استجاب لعرض السلطان . وأرسل حسن باشا زوج ابنته نيابة عنه لادارتها بعد اخماد ثورتها . ولما توفى زوج ابنته أرسل حسين بك وهو أحد قادته لاتمام العمل الذى عرض عليه وهو اخضاع ثوار كريت . وبرغم صلابة ثوار كريت ومناعة بلادهم الطبيعية استطاع الجيش المصرى اخضاعهم . وسقط أقوى معاقلهم فى سفاكيا Sphakia ، فى يده فى عام ١٨٢٤ . ومما يؤكد جدارة الفرق العسكرية التى أرسلها محمد على من مصر ان حسين بك استطاع بهم اخضاع ثوار جزيرتى كاسوس Kassos وسكاربنتو Scarpanto وهما على درجة عالية من المناعة . وقد سقطت الأولى بعد قتال عنيف وأبيحت للجنود المنتصرة خلال الـ ٢٤ ساعة التالية لسقوطها . أما سكاربنتو فآثرت التسليم صلحا ، على أساس دفع جزية الثلاث سنوات الأخيرة التى تخلفت عن سدادها للباب العالى .

ومن خلال الأحداث السابقة يتضح لنا اسلوب محمد على . فالثوار يجب كبح جماحهم واخماد ثورتهم ، ولكنهم اذا جنحوا للسلم فانه لا يبطن لهم ثأرا أو حقدا ولا يمانع فى اعطائهم شروطا مناسبة تتفق مع مصلحته . وهكذا نراه يستخدم الشدة فى مواقعها أو حيث تضطره الظروف لذلك . ولا يمانع فى استخدام اللين حيثما أوصله ذلك الى تحقيق أهدافه . وفى جميع الحالات يسعى لاثبات ما لديه من امكانات وفرتها له مصر .

ان نجاح محمد على فى اخضاع ثورة كريت وبعض الجزر اليونانية الصغيرة ، لفت نظر سلطان تركيا لمدى قدرات هذا الوالى ولمدى ما لمصر من امكانات يستطيع الافادة منها أو استهلاكها فى سبيل الحصول على ما يهدف اليه ، من القضاء على الثورات التى ظهرت فى أنحاء امبراطوريته .

ذلك هو موقف السلطان العثمانى ، فما هو موقف محمد على ، وما هو الفكر أو الايدلوجية التى حددت له أهدافه وأسلوبه ومسيرته .

لقد طلب منه السلطان اخضاع ثوار كريت وقد نجح فى ذلك ، فكيف يكون موقفه اذا طلب منه مزيدا من الجهد ومزيدا من العون والتضحية ، من أجل كيان الدولة العثمانية .

ان التعمق فى دراسة شخصية محمد على ، قد يكشف لنا عن واقعه ، من حيث انه رجل مصلح ، يميل بفطرته الى الارتفاع والرقى بكل ما تمسكه يداه ، وذلك واضح من خلال نصائحه الأبوية ، التى قدمها كثيرا لمعاونيه ، لأجل صالح البلاد والشعب ، ومن خلال الكيفية التى كان يواجه بها مشاكل البلاد . ولكنه أيضا رجل من النوع الذى يبحث دائما عن الكسب ، أو العائد الذى يمكن ان يعود عليه ، أو يحق له الحصول عليه من كل اصلاح يقوم به ، أو تقدم يسعى اليه . فمن المؤكد انه سعى جاهدا الى تنمية امكانات مصر خاصة ، ومنطقة الشرق الأوسط عامة فيما بعد . وذلك وفقا لطبيعته الدفينة التى سيطرت عليها ، نزعة الاصلاح والترقى . ولكن يجب الا نغفل الجانب الآخر من شخصيته . فنقول انه فعل ذلك أيضا لكى يتحقق له المزيد من القوة والقدرة ، ومن هنا كان سعيه الدائب لتحويل مصر والشرق قاطبة فيما بعد .

الى حقل عظيم الانتـــاج . ومن أجـل ذلك حاول تخليص مصر والشرق ، من ذلك الجمود الذى طبعهما به الحكم العثمانى ، وأدى بهما الى التخلف والتداعى . وفى سبيل وضع هذا الفكر المتقدم موضـــع التنفيذ ، بحث ونقب عن الامكانات والقدرات والثروات الكامنة فى هذه المنطقة . ومن هنا كان محمد على على استعداد للعمل فى أى ميدان جديد ، يمكنه من النهوض بمصر واستعراض قوته المستمدة منها ، بشرط ان يؤدى هذا وذاك الى تأكيد بقائه وأسرته من بعده فيها . ولا مانع من ان يكون ذلك الميدان الجديد فى أفريقيا .... أو آسيا .... أو أوربا .... أو حتى — كما سيحدث فيمـا بعد — فى داخـل جسم الامبراطورية العثمانيـة وبنيانها ، وفى مواجهتها .

الدولة العثمانية تستنجد بمصر :

بناء على تلك الملابسات ، رأى السلطان محمود الثانى (٨) ، أن يعهد الى محمد على ، بمهمة القضاء على الثورة التى شبت فى جنوب بلاد اليونان .

فما هو موقف محمد على من ذلك التكليف السلطانى ....؟ هل قبل القيام بتلك المهمة خشية غضب السلطان عليه فقط ؟ ! وألم يكن لديه احساس ، وهو الرجل الحصيف ، أن من بين أهداف ذلك السلطان ، هدف متوارث ، ألا وهو استنزاف خيرات مصر واستهلاك طاقة حاكمها !

الواقع انه كان لدى محمد على ذلك « النظام الجديد » الذى وضعه للجيش والذى أتى بثمار واضحة خلال الحرب فى كريت . فمن الممكن الآن استخدام هذا النظام الجديد على نطاق أوســـع

لاختبار مدى قدرته على قتـــال قوة أكبر • ولكى يثبت للجميع وخاصة للباب العالى مدى تفوقه الحربى ، وفى ذات الوقت يحصل على باشوية أو حكم ولاية المورة وهى الجزء الجنوبى من بـــلاد اليونان ، ان لم تكن اليونان بأكملها • ويفيد من نشاط اليونان ومقدرتهم البحرية العظمى لصالح مصر وأسطولها الناشىء • ويمـد بذلك نفوذ مصر ونفوذه على القطاع الجنوبى من أوربا • وبالتالى يسيطر باسم مصر على جانب كبير من الحركة التجارية فى البحر المتوسط وخاصة القطاع الشرقى منه •

هـــذه اذن هى وجهـة نظر مصر محمد على التى اتصـفت بالواقعية وهى تبـدو لنا من خلال أحاديث قادة مصر ومن ثنـايا حوارات مستشاريها مع قناصل الدول الأوربية • ومن ذلك ان الفرنسى لوفرن Lauvergne ، ذكر انه فى حديث له مع الكولونيل سيف (الذى عرف باسم سليمان باشا الفرنساوى ومن أحفاده كانت الملكة نازلى والدة الملك الســابق فاروق) فى أواخر عـــام ١٨٢٥ ، بشأن أهداف محمد على من وراء اشتراكه فى اخضاع ثورة اليونان ، فهم منه ان مصر لا تستطيع تجاهل خبرة البحارة اليونان ومقدرتهم البحرية • فمصر دولة زراعية يرجع تخلفها الى اقتصـــارها على بيع منتجاتها ، دون تصـــنيع ، للوكلاء والعملاء الأوربيين • أما وقد نهضت الآن وأنشىء بها العديد من مصانع النسيج للقطن والتيل ، فقد أصبحت فى حاجة لتوفير وسائل نقل منتجاتها المصنعة ، الى أنحاء العالم المختلفة • وذلك لا يمكن ان يتحقق الا بعد الاستعانة بمراكب اليــونان • وأشــار الكولونيــل سيف الى مدى استعداد محمد على – بسبب تقديره لمهارة اليونان – لتوقيع هدنة معهـم • وللسماح لمن يرغب من بينهم للهجرة الى مصر مع عائلاتهم للاقامة فيهـــا ، على ان يتحقق ذلك فى الوقت المناسب وعندما تتوفر الظروف الملائمة التى يمكن استغلالها •

وفيما يتعلق بموقف محمد على « الحاضر » من الثورة الهلينية ، التى أخذت طابعا جديا وعنيفا ، ذكر الكولونيل سيف أنه ـ أى محمد على ـ اشترط على الباب العالى بل وأصر على حتمية ان يأخذ ابراهيم وضعا رسميا معترفا به داخل الدولة العثمانية كحاكم عام للمورة • ولم يقصد بذلك التكريم أو المظهرية بل قصد تسليم ابراهيم السلطة الفعلية والأدوات أو الوسائل الضرورية التى تتيح له تنفيذ المهمة المطلوبة منه ، وتسهيل القيام بها ، ألا وهى اخضاع تلك الثورة • وأشار الكولونيل سيف الى ان اليونان والترك متشابهين من حيث المستوى الثقافى ومستوى الذكاء • وأن الأصول الدينية أو الاختلافات الطائفية بينهما ليست موضع اعتبار • وهى شئ عادى فى معظم دول أوربا ، فملك فرنسا يحكم شعبا مختلطا من الكاثوليك والبروتستانت •

هذه اذن هى نوايا محمد على الحقيقية وأهدافه الواقعية • وهذا هو عين ما اتخذه بعض ملوك مصر الأقدمين ، عندما شجعوا كثيرا من اليونان على الاقامة فى مصر حتى يكونوا عاملا من عوامل تنشيط الحركة التجارية والنقل البحرى ، مما ستجنى مصر ثماره • ونظرا لما تتمتع به مصر من خاصية قوية وقدرة عجيبة على امتصاص كل جديد ، لم يكن هناك ولن يكون أى خطر يهدد كتلة الشعب المصرى من جراء تطعيمه بفريق من اليونانيين المهرة فى شئون التجارة وشئون البحر •

فاذن لم يكن مما دار فى خلد محمد على فى يوم من الأيام ـ كما أشيع ـ أن يبيد اليونان المسيحيين فى بلادهم وأن يحل محلهم شعوبا اسلامية ليكون امارة اسلامية هناك •••• وما كان من الممكن ان يخاطر محمد على بصفوة رجاله ، لتحقيق هدف كهذا يصعب التكهن بنتائجه وعواقبه •

ومما يؤكد ان محمد على كان يضع أمام عينيه عندما قبل التدخل فى مشكلة اليونان مصلحة مصر . أنه عندما طلب الباب العالى منه فى سنة ١٨٢٣ ، ارسال حملة بقيادة ابراهيم باشا ضد الفرس الذين هاجموا تركيا مرات عديدة من الخلف ، أجاب بالرفض بكل حـــزم . لأن تلك المهمة تقع بعيدا عن المنطقة التى حصر نشاطه فيها ... أى منطقة الشرق الأوسط ، وتقع بعيدا أيضا عن أهدافه ... الا وهى تحقيق التكامل والتعاون بين مصر وبلاد تلك المنطقة .

ويمكن القول بأنه كان مما جال فى فكر محمد على مجاراة الاتجاهات العامة فى عصره ، والتى برزت بشكل واضح بعد هزيمة نابليون والفشل الظاهرى للثورة الفرنسية وعودة أسرة البوربون لفرنسا ... تلك الاتجاهات التى كانت ترى فى اخضـاع الثائرين حيثما وجدوا ، ما يرفع اسم المنتصر - باسم الشرعية - بين شعوب العالم عامة والشرق خاصة . وفى رأى المؤرخ البريطانى دودويل ، فان اخضـاع محمد على للثوار اليونان يجعل منه بطلا فى عصره ، ويسمح له اذا شاء بالاعتراض على أوامر الباب العالى . وأيضا ، كما تصـــور ، سيمنحه احترام احدى القوى الأوروبية الكبرى - انجلترا - وربما امكانية التفاهم ... ، أو التحالف معها .

ولكن هل كان محمد على مستعدا للاشتراك فى حرب كهذه ، قد تنجم عنها عواقب خطيرة لوجه الله .. ودون قيد ولا شرط .. كلا ... فهو ليس على هذا القدر من البساطة أو السذاجة . بل انه يسعى ليكفل لنفسه ولاشتراكه وسائل النجاح وليحقق أفضل النتائج . ويصف لنا الأميرال الفرنسى « ديران فييل » فى كتابه « الحملات البحرية لمحمد على وابراهيم » ، وفى فصل خاص عن المفاوضات التى جرت بين محمد على والباب العالى فى مارس ١٨٢٤ ،

الجولات المختلفة التى دخلها محمد على مع رجال الدولة العثمانية ومندوبيها ، وأساليبه فى التعامل معهم • فيشير ذلك المؤلف المعاصر ، الى مبلغ حفاوة محمد على بمندوب السلطان الذى جاء الى مصر ليسلمه فرمان الولاية على جنوب بلاد اليونان « المورة » لاخضاع ثورتها • وكان المعتقد ان محمد على ، التابع الأمين المخلص للسلطان ، لن يتأخر لحظة واحدة عن تلبية أوامر السلطان ، وتقديم جميع رجاله وقواته بل وشخصيه أيضا فداء طاعته •••• وانه ما كان ليطلب أكثر من ان يسمح له بمنازلة أعدائه « فيقضى عليهم فى ثمانية أيام » • ولكن هل كان محمد على مستعدا حقا للبذل دون قيد ولا شرط ••؟ أم كان لديه مدى معين لا يتحرك الا فى نطاقه •••• هذا ما لم يكن فى علم أحد سواه وما لم يستطع سبر غوره آنذاك من رجاله الا قلة قليلة •

الأمر الذى لا شك فيه ان ذلك الفرمان كان بمثابة توسيع لنطاق مصر وبسط لنفوذها فيما وراء البحار ، وبالتالى كان فيه رفع لشأن محمد على باشا • فاستنجاد الدولة العثمانية صاحبة الامبراطورية العظيمة فى الشرق والغرب به وبجيشه المصرى كلما قصرت يدها وعجزت عن مقاومة الثورات سواء فى الحجاز أو فى كريت وأخيرا فى اليونان ذاتها ، كان قطعا مما يزيده فخرا وسيادة ، ومما يوطد مكانته فى مصر مصدر قوته • وفى ذات الوقت فانه لم يكن هناك من سبيل لعدم تلبية الدعوة • فاذا رفض ما عرضه عليه السلطان من التكريم والتكليف ، فان رفضه يكون حجة عليه فى يد الساعين لخلعه عن ولايته واظهاره بمظهر الخارج عن ارادة السلطان • وهو لم يكن قد توصل بعد الى تحديد مركز مصر السياسى حيال تركيا • فلم يكن رغم أفضاله على الدولة العثمانية أكثر من وال عينه السلطان وللسلطان رسميا ان يعزله •

وازن محمد علي بين الاعتبارات المختلفة واستشار أعضاء أسرته وبعض العلماء وأعضاء حكومته ومنهم بوغوص بك الذي هنأه بهذا الشرف الكبير عندما أعلنه وأعضاء ديوان القاهرة بمضمون الفرمان وقال له « انه لمجد كبير ان يضع الباب العالي تاج بلاد اليونان على رأسكم فأنتم خليفة بونابرت في أفريقيا » .

حاول مندوب السلطان أن يفهم محمد علي ، أن العملية لن تعد قيام ابراهيم باشا على رأس قوة مصرية بنزهة بحرية الى حيث ولايته الجديدة !! .. ولكن هل كان يمكن لتلك الخدعة ان تجوز على محمد علي . فاقليم المورة في جنوب اليونان اقليم ثائر فلاش جباله قاسية ومرتفعاته منيعة وشعبه مستميت . وهو ... ابن قوله ... على دراية بالكثير من صفات تلك البلاد . ولذلك فقد كان مما رآه محمد علي ان يطالب بالمقابل . ولا نقول يشترط . ولكن يطلب في لباقة يفهمها الدبلوماسيون ببعض تعويضات أو مكافآت ، نظير ما سيقدمه من جهد من أجل اخضاع تلك الثورة . من ذلك على سبيل المثال ان يمنح باشوية دمشق أو عكا . ولكن برغم أهمية سوريا بالنسبة لمحمد علي حيث انها دخلت ضمن مخططه الوحدوي للشرق الأوسط بالاضافة لما كانت تحويه من أصدقاء مخلصين وأوفياء له . عبد الله في جبل الدروز .. وبشير الشهابي في جبل لبنان .. الا أن نجيب أفندي مندوب السلطان لم يشر اليها ولم يعط بباشويتها وعدا له .

وهكذا تأكد في استانبول – بعد تلك المقابلة التي تمت في مارس ١٨٢٤ – ان محاولة التمويه على محمد علي بالمبالغة من شأن باشوية المورة لم تجز عليه . وانه قد يعتذر عن عدم قدرته على القيام بها وبصرف النظر عن امكانية عزله أو نقله فان السلطان لن يجد له بديلا يستطيع انقاذه .

وفى ذات الوقت كان ابراهيم من الجهة الأخرى غير راغب فى ترك مصر وأظهر صراحة عدم قبوله للابتعاد عنها نهائيا فلا يمكن لولاية كالمورة يسودها التمرد والعصيان ان تلهيه عن مصر حيث الهدوء والنظام المستتب وحيث بدت بوادر الانتعاش والتطور الاقتصادى والمستقبل الباسم •

ان القرار الذى حمله نجيب أفندى الى مصر ، لا يعطى لابراهيم الا سلطة اخضاع ثورة شبه جزيرة المورة وجزيرتى سبزيا وهيدرا • أما بالنسبة لبلاد اليونان عامة ، فلم يعهد اليه الا بحق مباشرة التعبئة العامة للجنود والموارد ، مما يلزم لتعزيز الجيش المقاتل فى اقليم بريفيزا Prevsa شمال غرب اليونان •

ان ما فهمه محمد على ، بعد استقباله لنجيب أفندى مندوب السلطان ، عن الاتجاهات العثمانية والنوايا الظاهرة والمستترة كان مخيبا لآماله • وبلغ به الحنق وعدم الرضا مبلغا كبيرا فان أ ما كان يتوقعه هو ان يتعهد السلطان أو يتكفل بامداده بكل أدوات القتال والمؤن • وقبل هذا وأهم منه ان يسلمه جميع السلطات اللازمة التى تمكنه من اتمام العمليات الحربية بنجاح •

ولكن السلطان أعطى القبطان باشا التركى القيادة العليا البحرية والبرية فى بلاد اليونان وبذا يصبح الاسطول المصرى الذى سيشترك فى العمليات تابعا للاسطول التركى ولقيادته ، كما كان الحال فى الماضى ، رغم المستوى الذى وصل اليه الاسطول المصرى ، سواء بفضل تعزيزه أو بفضل الانتصارات التى حققها وأثبت بها جدارته •

ان القاب التشريف والتفخيم الجوفاء التى أغدقتها الحكومة العثمانية على محمد على وابنه ابراهيم ، عجزت عن تخفيف وقع

الحقيقة المؤلمة التي اكتشفاها ، وهي ان الزعامة والقيادة العثمانية في هذا الميدان الجديد ، لم تكفل لهما بنفس المستوى الذى كفلت به في مصر ٠٠٠ وبلاد العرب ٠٠٠ وجزيرة كريت ٠

وقد بدا كأن الخلاف سيدب بين محمد علي والباب العالي قبل قيام الحملة ٠ وكتب محمد علي في ١٩ ابريل ١٨٢٤ الى قاضي الجيش صديق أفندي يقول : « ان هناك مثلا بلديا شائعا يقول ان الوتد المتشعب لا يستطيع أن يشق الأرض ٠٠٠ وأنا لم أطلب سوى ولاية جده فاذا بهم يضيفون لابني ولاية المورة وقبطان باشا الى نهاية الحرب ٠ ومعنى هذا انه عندما تنتهي الحرب وتعود الأساطيل الى مراكزها السابقة ، يتحتم على ابراهيم الانسحاب ليجتني ثمار جهده وتضحياتنا أميرال آخر ٠ وقد توانيت في الاجابة على الباب العالي ازاء هذا العرض ٠ وذهبت للاسكندرية وهناك جاءني خطاب رسمي يقضي بتولية ابني ابراهيم على المورة — واليا ، وقائدا للاسطول المصرى ٠٠٠ ان التكليف اقتصر فقط على تولية حكم شبه جزيرة المورة وجزيرتي هيدرا وسبازيا ٠٠٠ ولكنه لم يكلف بالقيادة العليا للقوات المحاربة ، الأمر الذى يجعلني غير راغب في القيام بهذه العملية فأنا لا أرغب في تولية القيادة العليا حبا في ذلك المنصب ٠٠٠ بل لأن الحكمة تقتضي ذلك ، تجنبا لأى تمرد يمكن أن يقوم به بعض رجال الحملة الترك مما قد يؤثر على موقفنا ككل أمام الثائرين » ٠

ويتضح من هذه الرسالة مدى تمسك محمد علي بالحصول على الامكانيات التي تتيح للجيش المصرى الانتصار وتجنبه مغبة الفشل ، الذى أصبح من الصفات الواضحة للفرق التركية ٠

وعلى كل فقد استقر الرأى فى النهاية على حل وسط ... ، يظل ابراهيم باشا تابعا للقبطان باشا التركى على أن يستقل بالقيادة الكاملة للاسطول المصرى ، الذى يتكون من وحدة قائمة بذاتها بعد أن أضيفت اليه بعض القطع من الاسطول العثمانى . ان هذا الاتفاق أرضى اعتداد الامبراطورية العثمانية . وبناء عليه أعلن محمد على فى ١٠ يونيو عام ١٨٢٤ موافقته على تعيين ابنه ابراهيم باشا واليا وحاكما للجزء الجنوبى من بلاد اليونان أى لشبه جزيرة المورة .

الفصل الرابع

قوة مصر العسكرية

قوة مصر العسكرية

٥

لعله من المناسب ، قبل ان نتعرض للدور الذى قام به جيش مصر الوطنى وبحريته فى اليونان ، وقبل أن نستعرض الكثير من الانتصارات التى حصلا عليها خلال العمليات التى قاما بها ضد الثوار • ومن أجل السيطرة على البلاد ، أن نتتبع مراحل تكوينهما فى عهد محمد على خاصة لما اتصفا به من حداثة فى النشأة وجدة فى التكوين أشبه ما تكون ظهورا من العدم •

ولقد بدأت المحاولة الأولى لتكوين جيش وطنى فى عهد محمد على وفقا « للنظام الجديد » فى ظروف قاسية • اذ اعترض الألبانيون وقادتهم ، الذين ألفوا الفوضى والتمرد ، على تلك المحاولة بشدة عندما شرع فى تنفيذها فى عام ١٨١٥ • والأكثر من ذلك أن فريقا من جماعة العلماء انضموا للألبانيين فى الاعتراض على هذه المحاولة مستندين فى ذلك الى الحديث الشريف « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » • ووصلت المقاومة الى حد تدبير المؤامرات على حياة محمد على • وقد أشار الجبرتى الى ذلك

خلال أحداث شهر شعبان ١٢٣٠ هـ (٩ يوليو — ٦ أغسطس ١٨١٢) • ولما كان عليه محمد علي من دهاء ومرونة فانه وجد من السلامة ان يعالج الموقف بالصبر والحكمة • فلم يكن لديه في البلاد من الجند ، غير الألبانيين وكان لزاما عليه ان يصطنع الحذر ، فلو كان لديهم أقل فكرة عما يبيته لهم من النوايا ما كانت حياته عندهم تساوى شيئا يذكر • ومن ثم فانه فرق الجند في أنحاء متباعدة من مصر ، الى أن تزايد مركزه رسوخا واستطاع أحكام سيطرته على أمور البلاد وسكانها • وعندئذ بدأ محاولته الثانية في عام ١٨١٩ فأرسل عددا من السودانيين الى أعالي الصعيد في بلدة فرشوط التابعة لمحافظة قنا حاليا • وذلك لتدريبهم تحت اشراف ضابط اسمه ابراهيم أغا ، وهو أحد العصاة الأتراك الهاربين من الأستانة واللاجئين لمصر • وسرعان ما ظهر للعيان أنه لا نجاح لتدريب الجند أيا كانت نوعيتهم أو مواطنهم ، دون الاستعانة بمجموعة صالحة من الضباط • ولم يحاول محمد علي استقدام ضباط يكل اليهم هذه المهمة من تركيا ، حتى لا يستلفت نظر سلطانها ، ويثير الشبهات حول نفسه وأهدافه • بل فضل الاتجاه الى أوربا وعلى وجه الخصوص فرنسا ، حيث كان بها الكثير من ضباط نابليون الأكفاء الذين أحيلوا للتقاعد بعد انتهاء امبراطوريته وعودة الملكية ، وأصبحوا في أشد الحاجة للعمل في الخارج سعيا وراء الرزق وهربا مما قد يتعرضون له من أذى اذا بقوا في بلادهم وهي تحت سيادة ملكية البوربون • كما رأى محمد علي ان يستعين أيضا بضباط من الايطاليين والأسبان والبرتغاليين ممن قبل المجيء لمصر بدافع المغامرة أو الارتزاق •

النظام الجديد والكولونيل سيف :

كان جوزيف انشلم سيف Joseph Antheleme Seve ١٧٨٨ - ١٨٦٠ ، الذى اشتهر باسم الكولونيل سيف أو سليمان باشا الفرنساوى ، أفضل من جاء الى مصر من هؤلاء المعلمين أو المدربين • ومن المناسب ان نعرض لحياته خلال حديثنا عن الدور الذى قام به فى انشاء الجيش المصرى وفقا للنظام الجديد • فهو أصلا من مدينة ليون بفرنسا ، عمل فى سلاح المدفعية بالاسطول الفرنسى واشترك فى معركة الطرف الأغر فى ٢١ آكتوبر ١٨٠٥ ، ثم انضم للجيش الفرنسى الذى عمل فى ايطاليا عام ١٨٠٧ . واشترك فى حرب نابليون مع النمسا عام ١٨٠٩ ووقع فى الأسر خلال احدى المعارك ، ثم أفرج عنه وعاد الى فرنسا عام ١٨١١ ، ومع ذلك انضم لحملة نابليون الى روسيا عام ١٨١٢ ، وكان محظوظا خلال الارتداد ، فلم يفتك به برد روسيا القارس ، وتخلف فى المانيا حيث أصيب بجراح فى احدى المعارك بها فى فبراير ١٨١٣ ، ثم اشترك فى معارك ١٨١٤ ضد التحالف الأوربى الذى تكون من دول أوربا بغرض القضاء على نابليون ، ومنح وسام فرقة الشرف • وبعد معركة ووترلو Watterloo التي هزم فيها نابليون نهائيا ، سرح من الجيش وذلك فى آكتوبر عام ١٨١٥ • وقد ضاق صدره اذ أصبح عاطلا عن العمل ، برغم امتيازه وارتقائه الى مرتبة ضابط ياوران المارشال ناى ، أحد كبار القادة فى عهد نابليون • وقد دفعه سوء حاله للسفر الى ايطاليا كمندوب مبيعات لأحد بيوت التجارة الفرنسية • ولما علم بحاجة مصر الى خبرة فرنسية يستعين بها واليها فى تكوين الجيش الجديد ، سافر الى مصر وقدمه مدير مصانع الذخيرة والطرق والكبارى فى مصر وهو فرنسى أيضا الى محمد على • فكلفه هذا أولا بالبحث عن الفحم الحجرى فى الصعيد

والنوبة وجبال البحر الأحمر • ومع أنه لم يوفق فى بحثه الا انه استطاع خلال الفترة التى أمضاها مع أبناء مصر فى التنقيب بالوجه القبلى وعلى شاطىء البحر الأحمر ، ان يتفاهم عادات أهل البلاد وان يتأقلم معهم ومع عاداتهم فارتدى لباسهم وتعلم العربية وكسب صداقتهم • وسرعان ما اكتشف محمد على مواهبه وما لديه من خبرات عسكرية عديدة • فكلفه بشغل منصب « المعلم الرسمى » للنظام الجديد • على أن يعاونه فى ذلك مجموعة غير قليلة من الضباط الفرنسيين وغير الفرنسيين •

وفى عام ١٨٢٠ أنشــئت مدرسة المشاة العسكرية تحت اشرافه ، واختير غالبية تلاميذها ، من بين أبناء المماليك ومن شباب أسرة محمد على وبلغ عددهم نحو الأربعمائة • بدأوا تدريباتهم فى منطقة القلعة على مرأى من الأهالى والعلماء الذين أثاروا الصعاب من جديد • فكيف يخضع هــذا الشباب لرجل أجنبى ••••• أو « رومى » على حد تعبيرهم • ولذا اقترح سيف فى عام ١٨٢١ انتقال المدرسة الى مكان بعيد أى الى أقاصى الصعيد • اختيرت لذلك أسوان لبعدها عن القاهرة ولقربها من السودان • ذلك القطر الذى كان من المفروض ان يكون الممول الرئيسى برجاله لقوة الجيش الجديد وجنوده •

ولم تكن عملية التدريب فى أسوان بالمهمة اليسيرة فقد كان الاستهتار والاستخفاف بالأمور أمرا غالبا بين المدربين وفى طباعهم • وقد أظهر سيف حذقا ومهارة من أجل ادخال الانضباط والانصياع للأوامر الى طباعهم ، وغالبا ما كان ذلك بود ودماثة خلق مع الحزم الواضح مما فرض عليهم سلطانه • وبعد ذلك أحضر الى خيمته بعض البنادق وأخذ يثير شغفهم • شرح فوائدها وبيان ما استمده الأوروبيون من قوة ، بفضل استخدامها استخداما دقيقا • ثم أخذ

يضع البنادق فى أيديهم رويدا رويدا • ولكن مع أول بادرة خلاف بينه وبينهم استخدم بعضهم السلاح الجديد ضده ، وأطلق أحدهم النار عليه • وكانت هذه كما قيل اللحظة التى استطاع فيها سيف أن يسيطر عليهم سيطرة كاملة اذ تفادى الطلقة وأفحش فى سب من غدر به ، لتجرده من النخوة والكفاية وانعدام ما لديه من أدب واخلاص ازاء قائده • وكانوا يتوقعون ان ينتقم منهم انتقاما مريعا ، قد يصل الى حد الاعدام اذا بلغ الأمر للرؤساء أو لمحمد على ، غير انه أبى ذلك فقد حاولوا اغتياله وثأر لنفسه بنفسه ووقف الأمر عند هذا الحد • وبهذا السلوك الذى اتصف بالشهامة والكرم وبأمثاله أحبوه وتعلقوا به واستجابوا لما نشره بينهم من أصول الانضباط فى العسكرية •

هـذا ما كان من أمر الكولونيـل سيف مع أبناء المماليك وتدريبهم وما أسـفر عنه من نجاح برغم ما كان فيه من مخاطر وعقبات ومشقة • وقد تجنب محمد على تكليفه بتدريب الألبانيين على النظام الجديد لسابق علمه بتاريخهم الطويل فى حركات التمرد والعصيان • بل انه كان فى الواقع راغبا فى التخلص من بقاياهم وقد حالفه الحظ اذ كسر من حدتهم تناقص أعدادهم بسبب ما فقد منهم خلال الحرب الوهابية والحرب فى السودان • وما كاد بعضهم يعود الى مصر ممن نجا من مخاطر الحرب ، حتى سارع محمد على بتسريح جانب منهم بحجج متباينة • فاضـطروا للرحيل للخارج تحت حكم الظروف ، ومن بقى منهم قررت له مرتبـات واهية وجردوا من فرص الاستغلال •

وبينما تجنب محمد على الاستعانة ببقايا الألبانيين فى النظام الجديد ، نجد أنه تعذر عليه اختيار الجند من بدو الحجاز برغـم ما رآه من شجاعتهم لأنهم رفضوا ترك بلادهم •

ومن ثم استقر الرأى على تجنيد السودانيين . وهو المتفق عليه تاريخيا ان هذا كان من بين دوافع محمد على لفرض سيطرته على السودان . ووضع تخطيط تصل بمقتضاه اعداد من يجندوا من السودانيين الى ثلاثين أو أربعين ألفا . وقد بدأ سيل السودانيين يتدفق فعلا على أسوان لتدريبهم على يد الضباط الذين سبق وأعدهم الكولونيل سيف وأنشئت لهم الثكنات ، وطعموا بالأمصال الواقية من الأوبئة على يد الأطباء ، وأقيم لهم مستشفى خاص للعناية بهم . ولكن كل هذا لم يحل دون الموت الذى أخذ يتخطف شبابهم بسرعة عجيبة ، فمرضهم الأكبر كان « الغربة Home sickness'' بالاضافة الى عدم تحملهم للأجواء الباردة نسبيا فى مصر .

وبناء على هذه الملابسات اتجه محمد على الاتجاه الطبيعى الذى كان غائبا عن ذهن الكثيرين ... الا وهو الاستعانة بالفلاحين المصريين والحاقهم بالجيش الجديد أو النظام الجديد . ومن الغريب أن الطبقة التى يمكن ان نطلق عليها تعبير « الارستقراطية التركية » والتى كانت موجودة فى ذلك الحين بكثرة فى المناصب القيادية ، حاولت الحيلولة دون المصريين وتجنيدهم . ومارست ضغوطها على محمد على بحجة أن الجندية مهنة كريمة نبيلة فوق مستوى الفلاح المصرى ، ولذا لا يجوز انخراطه فى سلكها ، كما أثاروا الشكوك حول مدى اخلاص الفلاحين وما يحتمل من انقلابهم ، وهم أصحاب البلاد ، ضد الترك العثمانيين « الغالبين » اذا وضع السلاح فى أيديهم وذاقوا حلاوة استخدامه . ولكن محمد على باشا لم يتحول عن موقفه . وأصر على الاستمرار فى تجنيد المصريين . وكان مما شجعه على الاستمرار فى خطته أن الفلاحين المصريين أثبتوا دون سواهم نجاحا بالغا ، وتأقلموا مع حياة الجندية كما تأقلموا سابقا مع حياة الزراعة . كما أن ما فى أخلاق الفلاحين المصريين من وداعة وبساطة جعلهم آلات طيعة سهلت احداث تغير ملحوظ فى نظام

الجيش وانضباطه ، وأصبح المصرى المجند يفاخر بأنه من رجال الجيش ومن جنود مصر .

وهكذا وفق الكولونيل سيف فى عام ١٨٢٣ فى تحقيق حلم محمد على وحلم مصر . ونجح فى تكوين ستة آلايات من الجند المشاه ، غالبيتهم العظمى من الفلاحين . وذلك طبقا للأنظمة التى مارسها خلال العمليات الحربية التى اشترك فيها فى عهد فرنسا نابليون ضد جيوش أوربا ، وكذلك طبقا لما رآه محمد على فى مستهل حياته الحربية ، مما أقنعه بتفوق فنون الحرب الأوربية على مثيلاتها فى بلاد الشرق . فقد حارب بنفسه ضد الجيش الفرنسى فى مصر وانطبعت فى ذهنه صورة رائعة عن قيمة العلوم الحربية ، وعن أهمية ادخال نظام عام فى الجيش لحمته الطاعة وسداه احترام المرءوسين لرؤسائهم . ان تحويل أفراد من أقوام شاعت بينهم روح التسيب الى جماعة من الضباط والجنود الذين دربوا تدريبا منظما على الطاعة والنظام ، كان فى حد ذاته اقرارا لمبدأ من مبادىء النظام الذى لم يشمل الجيش فقط بل شمل المجتمع والشعب بأكمله .

وازاء ما تحقق من نجاح ، توقفت المعارضة التى ووجه بها محمد على فى بداية تنفيذ المشروع الخاص بالجيش الجديد أو « النظام الجديد » سواء أكانت تلك المعارضة من الترك والألبانيين أو من الشعب والعلماء . ونظرا لأن أسوان كانت بعيدة عن مركز الحكم فى القاهرة ، كما انها كانت شديدة الحرارة بالاضافة الى أن أحد أسباب اختيارها وهو القرب من أماكن تزويدها بالرجال المنقولين من السودان ، أصبح غير ذى بال بسبب عدم تأقلمهم . ازاء هذه الظروف تقرر نقل مركز التدريب الى مكان أكثر قربا للعاصمة وجوه أكثر مناسبة . ومن هنا نقل المركز من أسوان الى اسنا . ثم الى اخميم ثم أبو تيج ثم الى بنى عدى قرب منفلوط بمحافظة أسيوط

حاليا • وقد سافر محمد على الى تلك البلدة الأخيرة ليتفقد الرجال ويحضر احدى مناوراتهم العسكرية • ووضع الكولونيل سيف خطة لمناورة تولى ابراهيم (باشا) الاشراف على تنفيذها • وصحب محمد على فى تلك الزيارة دروفتى قنصل فرنسا وسولت قنصل انجلترا وسروا جميعا بما شاهدوه على الواقع • وعقب عودتهم كتب دروفتى الى وزير خارجية فرنسا فى فبراير عام ١٨٢٤ « بأن هذا الجيش الكامل النظام والترتيب على النمط الفرنسى ، يتألف من فلاحين مصريين ومن سودانيين أما القادة فغالبيتهم من الترك والمماليك وقد أبدوا جميعا فى المناورات مرتبة تستوجب الفخار لهم وللضباط الفرنسيين الذين دربوهم » •

وقد تسلمت الآلايات الستة كل منها علمها الخاص ، وسافر الآلاى الأول الى سنار وكردفان فى يناير عام ١٨٢٤ • أما الآلاى الثانى فسار الى القصير للابحار منها الى جده ، وهو الطريق الذى كان متبعا فى ذلك الحين وخاصة لدى الحجاج — (وقد تم فى العهد الحاضر رصف الطريق من قنا لسفاجه وأيضا من القصير الى السويس بطول الشاطىء المطل على البحر الأحمر وتم تجديد ميناء سفاجه ويجرى العمل فى تجديد ميناء القصير بهدف اعادة استخدام الخط البحرى من القصير وسفاجه الى جده) — أما باقى الآلايات من الثالث الى السادس فقد غادرت معسكر التدريب الى بلاد اليونان •

ولكى تزداد الصورة وضوحا فى ذهن القارىء يحسن أن نشير الى أن جميع آلايات الجيش المصرى نظمت وفقا للنسق الفرنسى ، وجميع أفراد الآلايات كانوا أصلا من الفلاحين اذا استثنينا عددا كان آخذا فى النقصان ولم يتجاوز الألفين على وجه التقريب من السودانيين • والضباط كانوا من الترك أو أبناء المماليك • ويتكون

آلاى المشاه من أربعة طوابير ويتألف كل طابور من عشرة بلوكات يمكن ان تهبط الى ثمانية يضم كل منها مائة جندى • أى أن الآلاى الواحد كان يتكون اذ ذاك من أربعة آلاف جندى عادة • ومن ثم فان جملة الجيش المصرى الذى أعد وفقا « للنظام الجديد » بلغ ٢٤ ألفا • والآلايات الأربعة النظامية التى أرسلت الى اليونان بلغ تعدادها ١٦ ألفا •

أما الفئات غير النظامية وهى البقية الباقية من الفلول القديمة ، فبلغت بمن انضم اليها من العربان وغيرهم نحو عشرة آلاف جندى ، ضم الجانب الغالب منها الى الحملات والنجدات التى أرسلت الى بلاد العرب والنوبة وكردفان وسنار •

وكان هناك من بين الأسلحة الهامة فى الجيش المصرى سلاح الفرسان • وبلغ تعداد فرسانه اذ ذاك نحو ثمانية آلاف • ومع ان غالبيتهم كانت من الترك والشراكسة الا أن الكثير من المصريين التحقوا بهذا السلاح • وتزايدت أعدادهم فيه مع الوقت حتى أن مستر بورنج وهو مندوب بريطانى أرسل من قبل حكومته للتعرف على أحوال مصر تحت حكم محمد على ذكر ، عندما عرض فى تقريره الذى كتبه فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر لمدرسة الفرسان انه ، كان بها كثير من المصريين الذين امتزجوا بالمماليك والأتراك وجرى اختيارهم من بين التلاميذ الذين يظهرون تفوقا فى المدارس الأولية حيث يرسلون الى المؤسسات الحربية مكافأة لهم على حسن سلوكهم وكفاءتهم • وأشار بورنج الى أن مدير المدرسة اعترف له بأن أبناء الفلاحين لا يقلون عن الترك ذكاء ومهارة • أما الشراكسة وأهل جورجيا فالذكى منهم يمكن ان يصل الى مرتبة عالية فى الكفاءة والمهارة • أما الغبى فلا يكون له مثيل فى الغباوة والفشل (٩) •

وقد اتبع سلاح الفرسان تشكيلا خاصا به يجمع كل خمسمائة فارس منهم تحت قيادة أحد البكوات • وهو تشكيل أو نسق مقتبس من النظام المملوكي ومتأثر به • ومع أهمية هذا السلاح وما قدمه من خدمات الا أن الانضباط بالمعنى أو الأسلوب الحديث لم يكن سائدا بينهم بالقدر المناسب فى أوائل عهد محمد على •

جرت العادة أيضا بأن يحتفظ كل من العاملين فى الوظائف القيادية بالدولة ، بعدد من فرسان المماليك البيض يتزايد مع ارتفاع امكانياته وقدراته • وقد تجاوزت جملة تعداد هذه الفئة من الفرسان فى عام ١٨٢٥ الآلاف العشرة وفقا لرأى بعض الكتاب المعاصرين • وفى حالة الحرب كان ينضم الجانب الأكبر منهم للفرق المقاتلة • ومع كفاءتهم وفاعليتهم الا ان قدرتهم على العمل العسكرى الجماعى لم يبلغ الحد المطلوب ، بسبب تبعيتهم لفئات متباينة ولاختلاف مستوى تدريبهم وكفاءتهم مع ضعف ما بينهم من رابطة •

وغير سلاح المشاه والفرسان كان سلاح المدفعية من بين أعمدة الجيش المصرى • وقد تالف فى الأوائل من نحو ١٢٠٠ جندى معظمهم من العثمانيين ، أو من الشعوب التابعة لسيادتهم • واستخدموا مبدئيا مدافع حصلت عليها مصر أو اشتريت لحسابها من فرنسا وتركيا وأسبانيا •

تصنيع السلاح والذخيرة :

حاول محمد على الاعتماد على مصر فى تزويد الجيش بالذخيرة والسلاح ، وخاصة البارود والبنادق والمدافع ، واستعان فى ذلك بخبرة بعض الأجانب ، خاصة من الفرنسيين • وكان النجاح واضحا

فيما يتعلق بالبارود اذ أعيد انشـــاء معمل البـارود القديم الذى أسسه الكيميائيون من علماء الحملة الفرنسية فى جزيرة الروضة ٠ وأصبح يمثل مصدرا رئيسيا لتمويل الجيش المصرى بالبارود ٠ وبلغ انتـاجه اليومى ما يقرب من الفى كيلو جرام ٠ أما معامل البنادق والمدافع فلم يكن انتاجها كافيا فى الأوائل ٠ ولذا واصلت مصر شراء حاجتها منهما من الخارج ٠ وقد بذلت عناية خاصة فيما بعد بمصنع المدافع حتى بلغ عدد العمال المصريين المشتغلين به فى صب المدافع نحو ١٥٠٠ عامل ٠ وكان انتاجهم فى الشهر الواحد يتراوح بين ثلاثة أو أربعة مدافع عدا مدافع الهاون وسواها ٠ أما مصانع البنادق والأسلحة ، فكان يعمل فى احدها نحو ٩٠٠ عامل ٠ وبلغ انتاجهم فى الشهر الواحد ما يتراوح بين ٦٠٠ ، ٦٥٠ بندقية عدا السيوف والحراب والسرج واللجم ٠ وفى مصنع آخر أنشىء لصناعة البنادق واصلاحها ، تحت اشراف ايطالى من جنوة عمل فيه نحو ١٢٠٠ من العمال المصريين ، وكان له انتاج لا بأس به، وان تفاوت زيادة ونقصا من شهر لآخر ٠ وأمكن لهذين المصنعين بصفة عامة ومقرهما بولاق والحوض المرصود ، قرب السيدة زينب حاليا ، أن ينتجا كل شهر بصفة عامة ، وفى غير مشقة ما لا يقل عن ألف بندقية كحد أدنى ، متوسط تكلفة البندقية الواحدة نحو مائة وخمسة وعشرين قرشا فى ذلك الحين ٠

وقد اهتم محمد على اهتماما واضحا بتمصير كل شيء ٠ وكان هو دائما وراء هذا الاتجاه من احلال المصرى مكان الأجنبى ٠ ومن أدلة ذلك ان أحد المهندسين الميكانيكيين الانجليز كتب فى تقرير له عن الصـناعة وحالة الطبقة العاملة فى مصر « ٠٠٠ ان أكثر ما يشكو منه الخبير الأوربى العـامل فى الحكومة المصرية ، انه يفصل من عمله يوم يستطيع المصرى القيام بعمله ٠ وهذا هو السر فى ان الأهالى لا يتقدمون كثيرا فى الصناعة لأن الأوربى يدرك

تماما انه سيفصل من وظيفته فى اللحظة التى يقف فيها الفلاح المصرى ولو على جانب من أسرار العمل الذى يزاوله • ولهذا يبذل الأوربى قصارى جهده حتى يظل المصرى قليل الحظ ، من معرفة أسرار الصناعة التى يزاولها » •

لم تكن القوات التى تم تدريبها على النظام الجديد ، ونقصد بها الآلايات الستة السابقة الذكر ، كافية فى نظر محمد على فقد تم توزيعها خارج مصر حيث فرضت الظروف ذلك • وأصبحت مصر شبه خالية من جيش نظامى يدافع عنها اذا دعت الظروف • هذا الى أن فقد جانب من الجند الذى أرسل للخارج كان أمرا واردا بطبيعة الحال خلال القيام باخماد الثورات التى شبت فى معظم أركان الدولة العثمانية وطلب من مصر اخمادها ، أو خلال ما كان متوقعا من اشتباك أشد خطورة مع الدول الأوربية أو مع الباب العالى نفسه • ثم ان النجاح فى تدريب الآلايات الستة الأولى ، وما حققه الجنود المصريون من استجابة لمبادىء النظام والانضباط ، دعا محمد على الى انشاء ثلاثة آلايات جديدة على غرار الآلايات الستة السابقة • ونظرا لتغيب الكولونيل سيف بالخارج كلف مهندسا ايطاليا من نابلى بتدريبهم • فشرع فى ذلك فى معسكر بنى عدى حيث حشد العدد اللازم من الفلاحين المصريين • ثم نقل المعسكر الى « أثر النبى » جنوب مصر القديمة ثم الى القبة • غير أن قرب المعسكر الأخير من أماكن التسلية بالقاهرة ، وما عرف عن تحفظ القاهرة وعدم تقبل العاصمة لكل جديد فى الجيش ، جعل محمد على يأمر بنقل المعسكر الى مكان بين الخانقاه « الخانكة الحالية » وأبو زعبل عرف باسم جهاد اباد • وفى معسكر جهاد اباد أكملت الآلايات الثلاثة السابع والثامن والتاسع تدريبها فى أغسطس ١٨٢٥ •

الفلاح المصرى والجندية :

قيل الكثير عن الفلاح المصرى ، وعن مقاومته خاصة فى الأوائل لمحاولة محمد على انتزاعه من الأرض واشراكه فى العسكرية . ولكن اذا ناقشنا هذه المقولة فى ضوء ملابسات العصر نجد أن الهدف من اشراكه فى العسكرية لم يكن واضحا فى ذهنه ولذا فلم يكن من السهل عليه تقبلها . محمد على كان يريد انتصارات مصرية يرفع بها شأنه وشأن مصر التى يتولى أمرها . ومما لا شك فيه ، كما يرى شفيق غربال أستاذ الجيل فى التاريخ ، انه حاول يوما ما ايجاد رابطة تجمع بين شعوب الشرق الأوسط التى تتكلم العربية يمكن اعتبارها بمثابة رابطة وطنية قائمة على احياء الروح القومية بين الشعوب العربية فى مواجهة السيادة العثمانية التركية . أما الفلاح المصرى الذى لم يغادر قريته ، ربما منذ ولد فالقومية لديه اذ ذاك كانت هى ما يربطه بقريته من أواصر المحبة ، وانها لوثيقة . والفلاح يحب بلده ونيله وأهله حبا يملأ شغاف قلبه . وهو لذلك لا يستطيع ان يعيش بعيدا عن أرضه ، فهو يتعلق بها وبقريته تعلقا يقرب من حد العبادة ، وهو اذا تهرب من التجنيد فلأنه يباعد بينه وبين وطنه أى قريته . وهو لبساطته كان فى حاجة الى توعية تبرر له انتزاعه من الأرض للاشتراك فى حرب . فلماذا يحارب فى بلاد العرب أو السودان أو اليونان وهو لا مطمع له فى تلك البلاد أو فى غنائم تعود عليه من قتال شعوبهم ، مثل ما لدى العناصر الأخرى من ترك أو البان مقاتلين . فالفلاحون المصريون كما حلل نفسيتهم المبعوث البريطانى بورنج فى تقريره « لا يخشون ما قد يتعرضون له من أخطار فى الخدمة العسكرية بقدر ما يحبون واديهم حبا عميقا يتجلى فى جميع أفراد الشعب المصرى » . كما قال عنهم أيضا « انهم بعيونهم اللامعة وقوامهم الجميل يستحيل ان ينظر المرء اليهم دون أن يوليهم اهتماما وتقديرا بالغا ، فهم

جادون فى تحمل المسئوليات ومرحون أيضا الى أقصى حدود المرح بعيدا عن مسئولياتهم » .

ولذا يمكن ان نقول ان الفلاح المصرى عندما حاول مقاومة انتزاعه من الأرض فى الأوائل ، لم يكن ذلك لصفة غير حميدة فيه ، بل لعذر يجب ان نلتمسه له ولدوافع ، يجب أن نعترف بما لها من قدر . لعل أولها احساسه بالمسئولية ازاء زراعة أرضه التى نما أجداده عليها كما نبت عليها الزرع ، والتى ستترك بورا وبلا زراعة من بعد تجنيده . ولعل منها مسئوليته ازاء اعالة أسرته ... الزوجة والأطفال وربما الآباء والأمهات والاخوة الصغار . وهو لا يستطيع ان يعولهم الا من زراعة أرضه ومن نتاج أرضه ومحصولها . فاذا انتزع من قريته ولم تزرع أرضه ... كيف يكون مآل هذه النفوس ... ؟ وكيف يشبعون أو يسد رمقهم ، ثم هناك أيضا مسئوليته عن أبنائه الأطفال وعن العناية بهم ، والحفاظ على زوجته وخدمة والديه والمتعة فى اعانة أهل قريته . ولا يليق بنا اذن ان نساير تلك المقولة عن الفلاح المصرى لعدم صحتها ، بل على العكس منها يجب ان نقدر دوافعه الحميدة التى تأسست على ما طبع عليه من شهامة وطيبة .

وقد كان من الأمور العادية ان تتبع الأسرة عائلها عند تجنيده الى مركز الفرز أو مركز التدريب لكى تعيش بالقرب منه ، تطمئن عليه ويطمئن عليها ، تقاسمه جرايته أو أجره ويقاسمها ما جلبته معها من خيرات القرية ، فلا حياة لهما نفسيا وماديا دون بعضهما البعض . وكان مما يزيد الأمر سوءا ان اختيار أو فرز الرجال الصالحين للجندية لم يكن يتم فى القرية أو المركز الذى تتبعه . وانما كان يحدث بعد وصول المجندين لمعسكر الفرز العام أو معسكر التدريب وهو بطبيعة الحال يبعد كثيرا فى معظم الحالات عن قرية المجند . وجرت عادة المسئولين عن جمع اللازمين لتكوين

الآلايات الجديدة على المبالغة فى الأعداد التى يتم جمعها تأمينا لجانبهم أمام رؤسائهم بصرف النظر عن المتاعب التى يتحملونها هم وأسرهم فى الانتقال الى مراكز الفرز دون مبرر • ومن ذلك وكمثال واقعى نجد انه وصل لمعسكر جهاد آباد الذى نحن بصدد الحديث عنه الآن فى عام ١٨٢٥ نحو سبعين ألف فرد ـ فى الوقت الذى لم يزد فيه تعداد الشعب المصرى عن مليونين تقريبا • أختير منهم اثنا عشر ألفا فقط ، ورفض حوالى اثنين وعشرين ألفا • أما الباقون وعددهم نحو ستة وثلاثين ألفا ، فكانوا من النساء والفتيات والأطفال والكهول ، الذين لحقوا بالمجندين للمعيشة بقربهم والاطمئنان على أحوالهم •

وكما ذكرنا فقد أمكن اعداد الآلايات الثلاثة خلال أربعة أشهر ، والوصول بالمدربين الى مستوى جيد مما أعجب به محمد على عند زيارته للمعسكر فى مارس ١٨٢٥ حيث أقام به خمسة عشر يوما ، شاهد خلالها العرض العام الذى أقامته الآلايات الثلاثة وحضر مناوراتها • وعلق أحد أعضاء البعثة الفرنسية التى عملت فى تدريب المصريين ، على زيارة محمد على فى رسالة له أرسلها فى شهر مايو عام ١٨٢٥ « بأن الوالى تملكته الدهشة لما رآه من انتظام الجند وانضباطهم ، وأعجب بدقتهم فى اطلاق النار واصابة الأهداف سواء خلال التقدم أو التقهقر ، كما شاهد اسلوبهم الناجح فى الهجوم على شكل طوابير • وبالايجاز أعجب بكل ما استطاعت هذه الآلايات الثلاثة ان تقوم به أمامه من حركات عسكرية متنوعة فى مهارة وبراعة • وكان من أثر اعجاب الباشا أن دعا الى المعسكر جميع الوزراء والعاملين فى الوظائف القيادية بالدولة ••• »

انشاء فرق معاونة للجيش :

من الأمور الطريفة انه لم يغب عن ذهن القائمين بأمر الجيش المصرى ، أهمية ادخال الموسيقى فى الفرق ، أسوة بما هو متبع فى جيوش أوربا الحديثة وعلى نسقها · وبناء على هذا الاتجاه أنشئت فرقة موسيقية فى مايو ١٨٢٥ ، اتخذت لها من معسكر الخانقاه (الخانكة) شمال القاهرة مركزا لتدريباتها · وقد تكونت هذه الفرقة أصلا من مجموعة من العناصر الأوربية ، فرنسيين وأسبان وألمان ممن يجيدون العزف على الآلات الأوربية · ومن الأمور الغريبة ان انشاء هذه الفرقة آثار كثيرا من الاعتراضات ، من قبل بعض المسئولين ، على أساس ان الموسيقى لا تتفق مع ما يجب ان تكون عليه الجندية من جدية وخشونة ·

ان الاعتراضات على انشاء الفرقة الموسيقية ، أشبه ما تكون بالاعتراضات التى ثارت عند انشاء النظام الجديد فى الجيش سابقا ، ومثل ما أثاره فيما بعد استخدام الأطباء البشريين بل والأطباء البيطريين · حتى ان الأخيرين حيل بينهم وبين فحص الحيوانات التى أصيبت بأمراض على أساس أن تلك الأمراض هى « من عند الله » واقتصر عملهم على علاج تلك التى أصيبت فى حوادث تسبب فيها الجند · ومع ذلك فان معارضة كل جديد وعدم استساغة الأنغام الأوربية خفتت تدريجيا · وبدأ ضباط الجيش وجنوده يألفون الموسيقات العسكرية وأصبح لأكثر آلايات الجيش فرق موسيقية خاصة بها تثير بين رجالها الحمية والنشاط · وأدى هذا النجاح الى انشاء مدرسة للموسيقى فى الخانقاه ، ضمت عددا من التلاميذ تراوح بين مائة وثلاثين ومائة وخمسين ·

احتاج الجيش المصرى الى فريق من المهندسين العسكريين ، لكى يحلوا مكان فرق « البلطه جى » أى فرق « حملة البلط » الذين

اعتمدت عليهم آلايات المشاه ، فى تمهيد الطرق وشقها واقامة الجسور وبث الألغام • وقيل أنه وجدت أورطتين من المهندسين الفنيين بلغ تعدادهما ألف ومائتى فرد • ولكنهم كانوا يكلفون فى كثير من الأوقات بأعمال عسكرية أكثر مما هى هندسية • ومع ما قاموا به أحيانا من أعمال فنية مما يلزم الجيش فى تحركاته ، الا انهم لم يصلوا فى الأوائل للدرجة المناسبة من الكفاية ، لقصر فترات تدريبهم •

أما العناية الطبية بأفراد الجيش المصرى ، والتى امتدت فيما بعد الى الشعب المصرى ، فقد وضعت تحت اشراف فرنسى اسمه كلوت بك Clot • ولا زال أحد الشوارع المتفرعة من ميدان رمسيس يحمل اسمه حتى الآن تقديرا لما بذله فى خدمة الجيش والشعب صحيا • وقد جمع عددا لا يقل عن ثلثمائة تلميذ فى « أبو زعبل » لدراسة الطب • كما أعد مكانا خاصا لدراسة الصيدلة وكانت المحاضرات تلقى عليهم بالفرنسية أو بلغة المحاضر اذا لم يكن فرنسيا فى بعض الحالات • ويقوم التراجمة ، السوريون فى معظم الحالات ، بترجمتها فورا الى العربية • وقد أشرف كلوت بك أيضا على ترجمة ١٥٢ كتابا فى الطب والصيدلة مما جلبه من الخارج من اللغات الأوربية الى اللغة التركية ، والى اللغة العربية بالاسلوب — أو اللغوة — السورية • واستطاع بعد فترة اعداد نحو ١٥٠٠ طبيب ، معظمهم من المصريين اعدادا لا بأس به • وقد نقلت مدرسة الطب فيما بعد • وكذلك مدرسة الصيدلة الى مكانهما الذى استقرا فيه حتى الآن ، الا وهو القصر العينى • واستمر اشراف كلوت بك عليهما حتى وفاة محمد على •

ومما يشرف الجيش المصرى ان كفاءته لم يشهد بها مصريون بقدر ما شهد بها أوربيون خاصة من السلك العسكرى • ومن ذلك ما ذكره الجنرال فيجان الفرنسى الذى عاصر انشاء النظام الجديد

بالجيش المصرى من « ان الفرق المصرية كانت فى حالة جيدة ولو أن مظهرها لم يكن ليروق أولئك الأوربيون الذين ألفوا رؤية الجندى الفرنسى أو الألمانى بمظهره الفخم وهو متقلد سلاحه ، غير أن أهم شىء فى الواقع هو أن هذا الجيش كان يجيد القتال ، ولهذا أحرز الكثير من الانتصارات وصمد فى وجه الهزائم ، دون أن تفتر همته أو تلين له قناة » • ومما يؤكد السمعة الطيبة التى حصل عليها الجيش المصرى بفضل الفلاح المصرى المجند ، الذى كان فيه بمثابة الأساس والعمود الفقرى ، ان حكومة شارل العاشر فى فرنسا ، طلبت الاستعانة به فيما بعد عندما أعدت حملتها الى بلاد الجزائر فى عام ١٨٣٠ •

خلاصة الأمر ان عناية مصر محمد على بانشاء جيش مصرى وفقا للنظام الجديد أدى ــ من واقع الاحصائيات الرسمية ــ الى ارتفاع عدده من ٢٤ ألفا فى عام ١٨٢٤ الى ٤١ ألفا فى عام ١٨٢٥ والى ٨٠ ألفا فى عام ١٨٣٣ والى ١٥٠ ألفا فى عام ١٨٣٩ هذا عدا القوة غير النظامية التى كانت ١٢ ألفا فى عام ١٨٢٨ والتى بلغت ٢٢ ألفا فى عام ١٨٣٩ • كل هذا من شعب تدور معظم الاحصائيات عن تعداده حول رقم المليونين •

ومن الحق أن نشير هنا الى التضحيات الكبيرة التى تحملتها مصر بسبب تجنيد الفلاحين فى الجيش المصرى • اذ انتزعت أكفأ طائفة من الزراع من القرى التى كانت تعيش فيها • وترك كثير من الأراضى بدون زراعة وبدون نتاج • وزاد الأمر سوءا فى الأوائل ، ادخال زراعة القطن اجباريا ، اذ أضر ذلك بالفلاح ، وان أفاد مصر والمشروعات الطموحة التى حاول محمد على تنفيذها داخليا وخارجيا • اذ أن محصول القطن كان حكرا للدولة ، يسلمه الفلاح بأكمله لمندوبيها دون أن ينال منه شيئا ، بعكس الحال فيما يتعلق بالمحاصيل الغذائية من قمح وفول وذرة وشعير • ان

تكلفة اعداد آلايات الجيش وملحقاتها ، وتكلفة السلاح والذخيرة وبناء السفن ما كانت تتم تغطيتها الا من القطن الذى كان حكرا للدولة ، والا من حصيلة الغلال التى كان يجمع جانب كبير منها من الفلاحين أو تجمع كلها أحيانا منهم مقابل أثمان زهيدة ، ثم يعاد بيع جانب منها لهم مقابل سعر مرتفع . كما ان المصرى تحمل تلك الضريبة الفادحة التى قررت عليه وهى ضريبة الرأس . ومما زاد من ثقل هذه الضرائب وعبئها على المصرى الانحرافات التى كانت تحدث سواء خلال عمليات جمع المحاصيل من قطن وغلال أو خلال تحصيل ضريبة الرأس . ومن ثم نستطيع ان نقول ان المصرى بفاعليته وتضحياته ، كان يمثل الركن الأساسى فى بناء الاصلاح سواء أكان عسكريا أم اجتماعيا فى عهد محمد على . ذلك الاصلاح الذى أنتج من الفوائد الكثير مما لا مثيل له . ذلك الاصلاح الذى أخرج مصر والمصريين من ذلك القمقم الذى اختزنوا فيه أو أغلق عليهم فيه ، على مدى عدة قرون ، الى الانفتاح على العالم الحديث بما احتواه من علم ومن نظم .

الاسطول المصرى :

يجدر بنا وقد تتبعنا مراحل انشاء جيش مصر البرى فى عهد محمد على . ذلك الجيش الذى استطاع به أبناء مصر فتح الحصون المنيعة والانتصار فى المعارك الحربية والاستيلاء على المدن فى كريت واليونان والجزر ، ومكنوا بذلك أمهم مصر من السيطرة على بلاد اليونان .... يجدر بنا ان نشير الى الجناح الآخر للقوة المصرية العسكرية ، ألا وهى قوة الاسطول المصرى ، الذى نقل الجيش البرى الى مركز العمليات الحربية ، سواء فى كريت أو اليونان أو الجزر التابعة لها . وقام خلال ذلك بدور رئيسى فى

المعارك البحرية ، التى نشبت بينه وبين الأساطيل اليونانية ، التى امتاز بحارتها بخبرة متوارثة وعريقة ·

والواقع ان انشاء أسطول بحرى مصرى ، ارتبط بخليط من الدوافع السياسية والاقتصادية بالاضافة الى الضرورات العسكرية ·

ان وجود بحرية مناسبة تابعة لمصر ، كان من شأنه دعم صلاتها بالأمم المتحضرة ، وتسهيل تصدير المنتجات المصرية وخاصة بعد ان أصبحت تلك المنتجات حكرا أو شبه حكر على الحكومة المصرية ، وأصبح ايرادها يمثل جانبا أساسيا من ايرادات الدولة · كما ان وجود بحرية قوية تابعة لمصر ، كان يمثل أهمية خاصة لمحمد على ، اذ يجبر بها الباب العالى على ان يعمل لمصر ألف حساب · وان يحترم قوتها وارادتها · ويتجنب بها تهديدات السلطان الذى لا مبدأ له ، وبالتالى لا يمكن أن يؤمن جانبه لأنه يستطيع وفقا لأهوائه ونزعاته ، ان يدخل الرعب الى قلبه وقلب الشعب المصرى · اذا أرسل لثغر مثل الاسكندرية جانبا من الاسطول العثمانى · دون ان يجد فى مواجهته أسطولا مصريا · ولا نغفل أيضا أهمية وجود أسطول مصرى ، يستطيع ان يواجه قراصنة البحر الأبيض سواء أكانوا من اليونان أو غيرهم ، ويحمى شواطىء البلاد وسكانها (١٠) ·

ولكن الصعوبات فى وجه انشاء أسطول مصرى لم تكن قليلة · فمصر لم يكن لديها فى ذلك الحين اهتمامات بحرية · ان ثلاثة قرون من الحكم العثمانى لمصر والسياسة العثمانية التى قامت على اغلاق البلاد التابعة لها وعزلها عن كل أنحاء العالم ، استطاعت الى حد كبير أن تقطع الصلة بين مصر والعالم وان تميت ما كان من توجهات بحرية وخبرات فنية متصلة بالملاحة ، خلال العصور الوسطى · وبالتالى لم يكن لدى مصر القدر الكافى من الرجال المدربين على الصناعات البحرية ، كما كان ينقصها المواد اللازمة

لبناء السفن ... الأخشاب وسواها . وذلك بالاضافة الى ان موانيها وعلى رأسها ميناء الاسكندرية لم تعد مداخلها — مع كثرة الاهمال — صالحة لمرور السفن الكبيرة من نوع الغليون — وهو ما يمكن ان نسميه بالبوارج — ومن ذلك ان مدخل ميناء الاسكندرية كان أقل من سبعة أمتار عمقا .

احتاج محمد على أولا لبناء بعض القطع البحرية لكى تعاونه فى نقل الجيش المصرى الى بلاد العرب ، عندما طلب منه السلطان العثمانى ارسال حملة ضد الوهابيين الخارجين عليه فى الجزيرة العربية . واسترشد محمد على فى تحقيق ذلك ، بما سبق أن اتخذه الفرنسيون أثناء وجود حملتهم فى مصر من اجراءات ، حين فكروا فى ايجاد علاقات بينهم وبين أمراء الهند عن طريق البحر الأحمر . اذ أنشأ نابليون ترسانة فى بلاق (بولاق) ، صنعت فيها مراكب حربية صغيرة ، كما صنعت بها مركب من نوع القرويت . ثم حملت أجزاء هذه المراكب الى السويس على ظهور الجمال ، حيث تم تجميعها وتركيبها ثم انزالها بنجاح الى البحر الأحمر .

واقتداء بما تحقق من نجاح على يد المصريين والفرنسيين فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ — ١٨٠١ ، أمر محمد على « ببناء بحرية مصرية » فى البحر الأحمر كبداية لمشروعات أكبر . وأشاع أن الغرض من انشائها هو استخدامها فى نقل المتاجر حتى لا يثير عليه شكوك الباب العالى ، بالاضافة الى مخاوف القوى العظمى اذ ذاك ، وعلى رأسها بريطانيا التى كانت تنظر بعين الريبة لكل من يقترب من الهند .. ، جوهرتها فى الشرق . وأنشأت مصر تنفيذا لتلك السياسة بساحل بولاق « ترسخانة وورشات » جمع لها مهرة الصناع والعمال من أنحاء مصر وبخاصة من الاسكندرية . كما استقدم لها بعض الصناع الفنيين من أنحاء أوربا . وجلبت

الأخشاب الصالحة حيثما توفرت فى أنحاء مصر ، واستكمل الباقى من جبال لبنان وآسيا الصغرى · كما أقيمت منشآت فى السويس لتجميع ما ينقل اليها من أجزاء السفن المفككة ·

وأمكن بذلك فى سبتمبر ١٨١١ ، أن يغادر ميناء السويس أسطول صغير فى طريقه الى بلاد العرب · فكان أول أسطول مصرى فى العصر الحديث · ومع أن هذا الأسطول كان صغيرا الا أنه كان كافيا لنقل الجند وتموين الحملة ضد الوهابيين بكل حاجياتها ، مع امدادها بصفة مستمرة بنجدات من الرجال والمزيد من السلاح والذخيرة · كما قدمت مدافعه الحماية اللازمة لتأمين سلامة الجنود المصريين عند انزالهم الى البر فى موانى الجزيرة العربية أو على شواطئها ·

واذا كانت مصر بدأت أولا بانشاء أسطول مصرى صغير فى البحر الأحمر لغرض حربى ، فانها أنشأت أسطولا آخر فى البحر الأبيض لغرض اقتصادى وتجارى فى بادىء الأمر · وشجع الادارة المصرية على ذلك ، النجاح النسبى الذى تحقق فى البحر الأحمر اذ أمكن بناء قطع بحرية استطاعت أن تؤدى عملياتها بكل نجاح · وكتب لها التوفيق فيما عهد به اليها من مهمات وقبل هذا وذاك · وجد نوع من الاطمئنان لدى تلك الادارة الى أمرين رئيسيين ، أولا الى الصانع المصرى بعد ان أثبت عمليا ما لديه من امكانيات طيبة ومهارات اكتسبها بذكائه سريعـا وذلك فى بناء تلك السـفن · وثانيا الى البحار المصرى وما أثبته من قدرة على تسيير ما يتم بناؤه من سفن فى البحر ، أسـوة بما هو قدير على تسييره من مراكب فى النيل بكل نجاح وثبات ·

ان الباعث الجوهرى على انشـاء أسـطول تجارى لمصر فى البحر الأبيض ، مما كان بمثابة فاتحة للنشاط البحرى لها به ،

هو سيطرة الادارة المصرية والباشا على تجارة الصادر . كما حاولت تلك الادارة احتكار النقل النهرى داخل البلاد ، فانها حاولت أيضا الانفراد بفوائد النقل البحرى . فقد اتفقت مصر محمد على مع انجلترا فى عام ١٨١٠ ، على بيع الغلال لها وكسبت كثيرا من ذلك ، خاصة خلال الحروب النابليونية وفترة الحصار القارى ، بسبب ارتفاع الأسعار . مما شجعها على فتح مراكز أو وكالات للتجارة المصرية فى معظم أنحاء أوربا . وقد أشار الجبرتى الى هذا النشاط البحرى التجارى فى حوادث ١٢٣١ هـ ، ١٨١٦ م فذكر « ان الباشا أقام له وكلاء بسائر الأساكل حتى ببلاد فرانسة والانكليز ومالطة وأزمير وتونس والنابلطان ــ نابلى ــ والبنادقة واليمن والهند . وأعطى أناسا جملا عظيمة من أموال يسافرون بها ويجلبون البضائع ، وجعل لهم الثلث فى الربح نظير سفرهم وخدمتهم » .

وقد حدث خلال الحصار القارى ، أن تعرضت بعض السفن الانجليزية التى كانت محملة بغلال مصرية لاغارة الفرنسيين عليها ، مما حفز محمد على الى تعزيز أسطوله التجارى ليستطيع نقل كافة الصادرات المصرية دون الالتجاء الى سفن أجنبية . وتألف ذلك الأسطول فعلا من فرقاطة أطلق عليها اسم « افريقية » بنيت فى ميناء الاسكندرية وأرسلت لانجلترا فى عام ١٨١٠ لتحويلها الى مركب حربى . وسلحت هناك فعليا بثلاثين مدفعا من البرنز وأصبحت ذات شأن فى الاسطول المصرى بعد عودتها للاسكندرية . وانضم الى الفرقاطة « افريقية » أربع سفن أخرى اشترتها مصر من الخارج ومجموعة من المراكب التجارية المتوسطة حمل بعضها عددا من المدافع لتكون قادرة ، اذا هوجمت ، على الدفاع عن نفسها . وغادر هذا الاسطول محملا بالغلال ميناء الاسكندرية فى أغسطس ١٨١٢ ، فوصل الى مالطة بسلام وأمان ، حيث أفرغ حمولته من

الغلال وعبأها بالذخائر والأسلحة اللازمة للحملة الوهابية . مما شجع مصر على ان تكرر القيام بمثل هذه الرحلات ، سواء الى مالطة أو الى الاستانة أو الى بعض موانى البحر الأبيض .

وفى عام ١٨١٢ كان الاسطول المصرى فى البحر الأبيض يتألف من ، أفريقية ووشنطن ـ وهو مركب أمريكى ـ وفرقاطة أخرى ذات أربعين مدفعا ، وثمانية مراكب تجارية كبرى . وفى عام ١٨١٧ أصبح هذا الاسطول بعد تعزيزه مؤلفا من سبعة عشر مركبا كبيرا . وفى العام التالى أصدر محمد على أمرا ببناء ثلاث فرقاطات أخرى بالاسكندرية لحمل ونقل الغلال والفحم والخشب والرخام الى البلاد الخارجية . وكانت هذه الفرقاطات تحمل المدافع على ظهرها لحماية نفسها من القراصنة . الا أن جميع هذه القطع برغم تسليحها كانت سفنا تجارية أكثر منها حربية الى ذلك الحين . واحتاج الأمر الى كثير من التطوير والتعديل والتعزيز لتحويلها الى اسطول حربى .

وقد توفر الحافز الى ذلك عندما لجأ السلطان العثمانى بعد عام ١٨٢١ لمحمد على ، لكى يعاونه فى اخضاع ثورات كريت والجزر اليونانية . وقد انتهز محمد على تلك الفرصة التى أعطته ما يبرر به انشاء اسطول مسلح . وسرعان ما اتجه الى الموانى الأوربية للارتباط معها على بناء سفن حربية . وهكذا فعندما خرج اسطول مصرى من الاسكندرية فى عام ١٨٢٤ لملاقاة سفن الثوار اليونان كان يتألف من ٥١ مركبا مسلحا ، ١٤٦ نقالة حملت ١٨ ألف جندى . وعندما وقع الصدام بين هذه القوة والثوار رأى قادة الاسطول المصرى ومحمد على ، انهم اذا أرادوا أن يكونوا ندا للثوار اليونان ، واذا أرادوا التغلب على المراكب اليونانية ، فلا سبيل لهم الى ذلك الا بانشاء مراكب أكبر وأسرع وأقوى تسليحا ، مما كان لدى مصر اذ ذاك . وبناء عليه طلبت مصر تلك النوعية من

فرنسا عن طريق قنصلها دروفتى ، كما طلبت ارسال أحد الضباط الأكفاء من البحرية الملكية الفرنسية ، لتكليفه بانشاء مدرسة لتدريب البحارة المصريين ، على أحدث فنون الحرب البحرية نظريا وعمليا .

ومن الواضح أن مصر كانت تغطى تكلفة شراء تلك السفن من الأموال التى تحصل عليها من بيع الحاصلات المصرية والمنتجات التى كانت تصدرها الى موانى أوربا وأسواقها ، أى من كد الشعب المصرى ومن عرق أبنائه .

وقد حصلت مصر ، على عدة مراحل ، من طلبية السفن الحربية التى قدمتها للموانى والدول الأوربية فى عام ١٨٢٤ ، على فرقاطتين وأربع سفن من نوع القرويت وخمس من نوع الابريق .وكانت هذه المجموعة من السفن (١١) هى عماد الاسطول المصرى ، الذى اشتركت به فى معركة نفارين التى سيأتى ذكرها فيما بعد ، والذى تكون من ٣١ قطعة غرق معظمها فى تلك الموقعة (١٢) .

وبرغم هذه الكارثة ، فاننا نجد من واجبنا أن نخرج عن هدف هذا الفصل ، لشرح القوة التى دخلت بها مصر الحرب مع اليونان ومدى ما كان لديها من امكانات واستعدادات عسكرية ، لنشير الى رد الفعل فى مصر ، فانه لم يمض على ذلك عامين حتى نجحت مصر فى تعويض خسائرها لا اعتمادا على الشراء من الخارج ، كما حدث فى المرحلة السابقة ، بل اعتمادا على ما يتم بناؤه فى دور الصناعة التى أنشئت فى مصر ذاتها ، تحت اشراف المهندس الفرنسى المخلص مسيو دى سيريزى .

واذا كان لمسيو دى سيريزى فضل الاشراف ، فاننا لا نغمط اليد المصرية العاملة حقها ، الأمر الذى بدونه ما كان يمكن تحقيق

سياسة مصر محمد على وتطلعاتهـا الدائمة الى تمصير كل شيء ، واحلال المصرى مكان الأجنبى فى جميع الأنشطة والصناعات ٠

وقد ذكر بورنج البريطانى ، فيما جاء فى تقريره عن الترسانة المصرية أو بمعنى آخر دار الصناعة البحرية ، والصناع العاملين فيها ، بعد زيارات شـخصية قام بهـا لدور الصناعات المختلفة « ان عدد العمال الأوربيين فى مختلف الصناعات البحرية قليل جدا ٠ وعلى الرغم من أن العمال الوطنيين لا يمكن الموازنة بينهم وبين زملائهم الأوربيين الا اننـا اذا وضعنا فى الاعتبار المستوى والقدر الذى حصلوا عليه من التعليم أدركنا انهم يأتون بالعجائب وبخاصة من يشتغلون منهم فى بناء السفن فهؤلاء بالذات أقرب ما يكونون للعمال الأوربيين فى مستوى المهارة الفنية » ٠ ولا شك ان هذه شهادة طيبة لصالح العامل أو الصانع المصرى ، خاصة اذا ما وضعنا فى الاعتبار ما ذكرناه سابقا من أن الأوربيين كانوا يتعمدون عدم اطـلاع الصناع المصريين على الأسرار الفنيـة فى الصناعة ، حتى يظل المصريون على جهلهم ولا يستغنى عنهم أى عن الأوربيين ٠ ومع ذلك فباعتراف بورنج استطاع المصريون التقاط معظم أسرار الصناعات التى أدخلت وتفهم أساليبها ، وخاصة فيما يتعلق بفن بناء السفن وهندستها ٠

المصريون فى البحرية :

سجل أمين سامى باشا فى كتابه « تقويم النيل وعصر محمد على » احصاء عن العاملين فى الاسطول البحرى ٠ جاء فيه ان عدد الضباط البحريين فى عام ١٨١٠ كان (٢٧) ضابطا فقط أصبح فى عام ١٨١٩ (٧٨) ضابطا وفى عام ١٨٢٨ (١٥٩) ٠ أما البحارة فكانوا

فى عام ١٨١٠ (٢٩٢٨) أصبحوا فى عام ١٨١٩ (٧٢٢٠) بحارا وبلغ عددهم فى عام ١٨٢٨ (١٣٣٦٥) بحارا • وهذا الاحصاء يكشف لنا بوضوح ، عن ظاهرة هامة هى التزايد فى اعداد العاملين بالاسطول مما يؤكد الزيادة السريعة فى اعداد قطعه •

أما عن نوعية البحارة العاملين فى هذا الاسطول ومدى كفاءتهم فقد شهد لها الأجانب قبل المصريين مما يعطينا ضمانا بعدم التحيز • ومن ذلك ما ذكره جون بورنج الذى جاء الى مصر فى الثلاثينات موفدا من بريطانيا ، كما ذكرنا سابقا ، لوضع تقرير عن أحوال مصر • اذ ذكر عن جنود البحرية المصرية « ان المصريين سكان وادى النيل ألفوا منذ صغرهم معيشة تكاد تجمع بين حياة البر والبحر مما جعلهم بحارة من الطراز الأول • ومع أن معظم ضباط الاسطول من العناصر التركية الا أن جميع البحارة من المصريين الوطنيين • والعناية بالسفن تثير الاعجاب فقد بلغت الغاية فى نظامها ونظافتها • وتوفير الأمان والسلامة لهذا الاسطول • مما يدعو الى تمام الرضا كما أن مظهر الاسطول فيما عدا أزياء البحارة لا يختلف عن مظهر أى اسطول أوربى حسن التنظيم » • وذكر فى موضع آخر أيضا عن البحارة المصريين « انهم جميعا سباحون من الطراز الأول ومن أيسر الأمور بالنسبة لهم القيام بالمناورات البحرية التى يؤدونها بكل مهارة » • ونقل بورنج عن أوربى آخر ، كان يقود احدى السفن الحربية لمصر ما وصف به المصريين من « أن من السهل تعويدهم النظام ، كما انهم يتحلون بالصبر والطاعة والوداعة والاخلاص • ويحتملون ضروب الحرمان فى هشاشة وبشاشة ولا يكفون عن المرح والدعابة الا نادرا » •

الفصل الخامس

مصر والحرب مع اليونان

مصر والحرب مع اليونان

لمن الحكم ولمن القيادة ؟

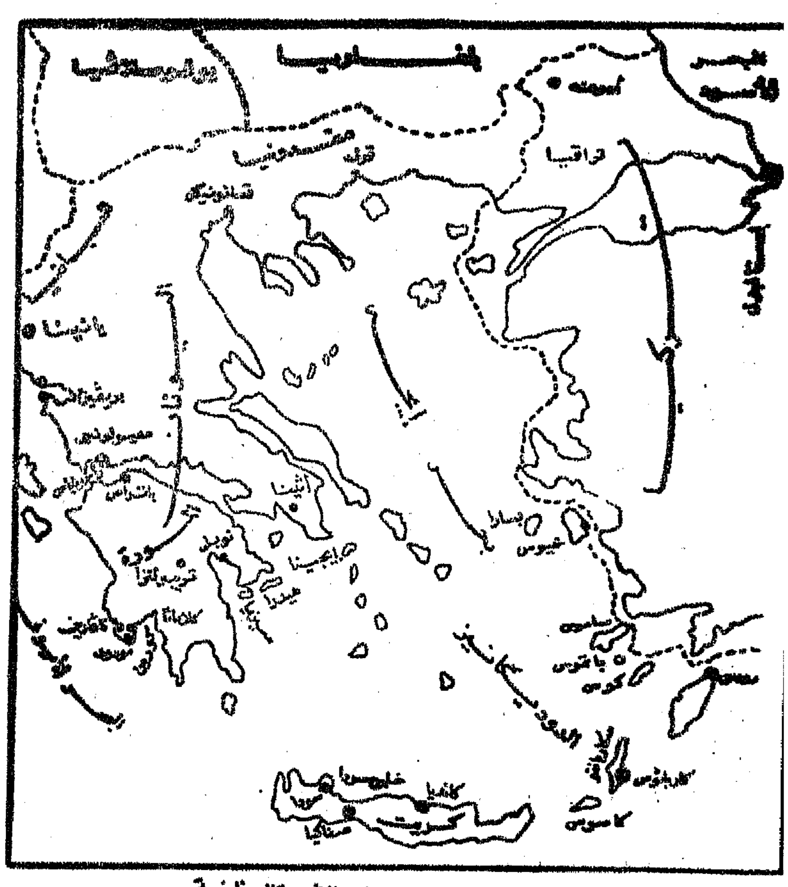
بناء على الاتفاق الذى عقد بين محمد على والسلطان محمود الثانى ، بشأن تعيين ابراهيم باشا حاكما عاما لشبه جزيرة المورة ، بما فيه العاصمة أثينا وقائدا عاما للاسطول المصرى ، مما سبق الاشارة اليه فى الفصل الثالث ، أبحرت القوة المصرية من الاسكندرية فى ١٠ يوليو ١٨٢٤ · وبرغم وجود شىء من التضارب بين أقوال المعاصرين وتقاريرهم ، ومعظمهم من الأوربيين ، بشأن تعداد القوة البرية والبحرية وتعداد قطع الاسطول المصرى وذلك لصعوبة اجراء حصر دقيق الا انه استنادا للاحداث المصاحبة يمكن القول انها كانت تتكون من ١٦ ألف جندى نظامى ، تمثل الآلايات الأربعة التى دربت على يد الكولونيل سيف ، بالاضافة الى بضعة آلاف أخرى تكونت من الفرسان ومن غير النظاميين · وهاتين الفئتين الأخيرتين لايقل تعدادهما عن الألفين وقد يزيد كثيرا · هذا غير أطقم السفن من البحارة النوتية والبحارة المسلحين وضباطهم البحريين · وقد تم ابحار هذه القوة على عدد من الناقلات ، تراوح

بين مائة ومائة وخمسين ناقلة ، فى حماية عدد من السفن المسلحة تراوح بين الواحد والخمسين والثلاثة والستين تحت قيادة ابراهيم باشا .

أما القيادة العليا — فوفقا لسياسة الباب العالى التقليدية التى جرت على تقسيم السلطة — (١٣) فمنحت لخسرو باشا « كقبطان باشا » ، وهو لقب يعنى القائد الأعلى لجميع الأساطيل المشتركة .

ان اختيار الباب العالى لخسرو باشا (١٤) بالذات وعلى وجه التحديد ، لقيادة الأساطيل العثمانية ما كان ليرضى محمد على بأى حال من الأحوال . فكلاهما يبطن للآخر العداء منذ طرد خسرو باشا من باشوية مصر بفعل مؤامرات محمد على . حقا ان السلطان ضمن بهذا الاختيار استحالة اتحاد ابراهيم باشا وخسرو باشا ضده وضد سلطاته العليا . ولكنه أيضا كان يستطيع ان يضمن بفضل هذا الاختيار استحالة قيامهما بعمل ناجح أو حصولهما على نصر حاسم .

وعلى كل فقد اتفق على ان يتجمع الأسطولان التركى والمصرى فى جزيرة رودس ، على ان يتحركا فى اتجاه الجزر اليونانية الصغيرة المتناثرة فى بحر ايجه . على أساس ان تلك الجزر تمثل مركزا عاما للثورة اليونانية ، ومعقلا أهم للثوار اليونان والقراصنة الذين هددوا بهجماتهم الخاطفة سلامة المراكب العثمانية سواء أكانت تجارية أم حربية ، بالاضافة الى سلامة الموانى التركية . واتفق أيضا على اتجاه الاسطولين ، بعد اخضاع الجزر ، نحو المركز الرئيسى للثورة اليونانية الهيلينية ، ألا وهو شبه جزيرة الموره . ومن المعروف ان تلك الخطة كانت من اعداد محمد على ، وهى توضح مدى ادراكه لما للجزر اليونانية من أهمية استراتيجية



مناطق الصراع خلال الثورة اليونانية
وحدود اليونان الحالية

فى السيطرة على البحر ، وفى التأثير على أى عملية أخرى مما يمكن اجراؤه فى قلب بلاد اليونان أى فى شبه جزيرة المورة ٠

بدأ خسرو بصفته القائد الأعلى لاسطول الدولة العثمانية « قبطان باشا التركى » قيادته بداية طيبة ٠ ففى الثالث من شهر يوليو استولى على بسارا Psara وكانت تمثل مركزا هاما للقراصنة فى غرب جزيرة خيوس Chios

وكان عليه ان ينتقل للخطوة الثانيـة أو للمركز الثانى لعملياته الحربية ممثلا فى جزيرة ساموس Samos ٠ ولكنه أضاع نحو شهر كامل فى اقامة المهرجانات احتفالا بانتصاره فى بسارا ٠ ومما لاشك فيه انه قصد بذلك احاطة انتصاره بهالة من المجد ، كنوع من الدعاية لشخصه ولقدراته ومواهبه العسكرية ، ولعله قصد أيضا المماطلة والتسويف ، انتظارا لوصول الاسطول المصرى ، حتى يترك له الجانب الأكبر من عبء اخضـاع الجزر اليونانية الثائرة والقراصنة الخطرين ، محملا اياه عبء الخسائر والتضحيات التى قد تصحب ذلك ٠

ولكن القراصـنة من اليونان نجحوا فى ١٦ أغسطس فى استدراج الأسطول العثمانى وقائده الى بعض مناوشـات كشفت عما كان يعانيه ذلك الاسطول من ضعف وتخاذل سواء فى القيادة أو الرجال ٠ اذ خسر ثلاثا من قطعه الهـامة ، فرقاطتين ونقيره ، وولت بقية القطع لائذة هاربة بنفسها من الميدان ٠

انضم الاسطول المصرى بقيادة ابراهيم باشا للاسطول التركى فى ٢٩ أغسطس ١٨٢٤ ٠ وخلال شهر سبتمبر حدثت بعض مناوشات مع اليونان ، لم يظهر فيها الاسطول التركى أى قدر من المهارة أو الشجاعة ٠

وقد جاء في رسالة من دروفتي Drovetti قنصل فرنسا في مصر ، الى البارون دي داماس Baron de Damas أحد المستشارين الفرنسيين ، بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٨٢٤ « يرى محمد على بعد الهزائم التي تعرض لها القبطان باشا أمام ساموس ، عدم صلاحيته لقيادة القوات العثمانية . وبناء عليه طلب احلال يوسف باشا مكانه في القيادة العليا للقوات العثمانية لأنه أكثر مقدرة على ادارة دفة العمليات الحربية » .

وفي نهاية شهر سبتمبر ، قرر السلطان اعادة خسرو الى استانبول ، لبعض أسباب من بينها ما أظهره من فشل . ومن ثم تركت القيادة لابراهيم بمفرده . وكانت الظروف التي تولى فيها تلك القيادة تفرض عليه اتخاذ موقف الدفاع فالظروف الجوية سيئة ومخاطر البحر في ازدياد ولهيب الثورة يزداد شدة واندلاعا ولذا فانه آثر تجميع سفنه في خليج سودا Sauda على الساحل الشمالي الغربي لكريت حيث المزيد من الاستقرار والأمان . ونجح في تحقيق ذلك دون خسارة ذات بال . أما محمد على في مصر فكان آخر من يستسلم لنوبات اليأس وآخر من يقبل هزيمة أو يرضخ لها . وفي ذلك قال « أنا لا أستطيع بناء أسطول في صحراء الأهرام وكذلك أنا لا أستطيع تحاشي الخسائر في الحرب . ولكن مع الوقت سيكون لدى اسطول كبير وقوى ، وعندئذ أستطيع تكبيد اليونانين خسائر فادحة وهزائم ساحقة .

وجد محمد على ان المحور الأساسي للحرب مع اليونان يستند الى الأسطول البحري . فاخضاع الثوار وهم أهل جزر ورواد بحار ، يستلزم السيطرة بالتالي على البحر وعلى الجزر ، قبل الانتقال بالمعركة الى اليابسة ، وكشف محمد على لتلك الحقيقة دفعه الى زيادة قوة أسطوله وتعداده . وتسلم فعلا خلال تلك

الفترة أربع ناقلات جنود من يطاليا كما وصلته خمس أخرى من دول ومدن أوربية ، وأرسل مندوبا (فرنسيـــيا) الى فرنسا للاتفاق على بناء ٣ سفن في أحواضها الملكية بمرســـيليا • ومن الغريب ان محمد على استطاع التفاهم مع بعض التجار اليونان ، الذين وضعوا سفنهم تحت امرته برغـــم ما كان من مذبحـــة خيوس (١٥) • كما تم الاتفاق مع مدينة البندقية وامارة لجهورن Leghorn على امداده ببعض السفن •

موقف الشعب المصرى من الحرب وتمويلها

تعرضنا للحديث عن موقف الدولة العثمانية ومحمد على من الثورة اليونانية ، ولكن ما هو موقف الشعب المصرى من تلك الأحداث • الأمر الذى لاشك فيه انه هو بمفرده الذى تحمل جميع الأعباء المالية ، التى استلزمها اعداد الحملات الحربيـــة والبحرية المتتالية ، التى أرسلها محمـــد على الى كريت والآن الى اليونان • هناك ثمن شراء السلاح والبارود والملابس •• ، وهناك المؤن اللازمة لجنود الجيش ولخيالته •• ، ثم نفقات انشاء الاسطول البحرى ، ســـواء أكان ذلك بشراء قطعــه من الخارج أم بتصنيعها فى دور الصناعة الجديدة (الترسانات) ، التى انشئت فى موانى مصر ، واستقدم لها بعض الخبراء والمهندسين من الخارج وخاصة من فرنسا • أضف الى ذلك ان القوة المصرية التى اشتركت فى حرب كريت والموره بلغ تعدادها نحو الخمسين ألفا ، جنده كلهـــا — باستثناء ألف فرد تقريبا من أبناء المماليك والشراكســـة — من المصريين • وذلك بعد تدريبهم باشراف الكولونيل سيف ، فى وقت لم يتجـــاوز فيه التعداد الكلى للشعب المصرى مليونى فرد الا بقليل • وبالاضافة الى الأعباء التى تحملها المصريون فى أموالهم

وفى أبنائهم • فان محمد على رغبـــة منـــه فى زيادة موارد مصر وصادراتها ، أحدث تغيرا جذريا فى حياة الفلاح المصرى المحافظ بطبيعته ، عندما فرض زراعة القطن بدلا من زراعة الحبوب التى تمثل عامل الأمن الغذائى له ، فى كثير من المناطق • ولكن هذا لا يمثل كل تضحيات مصر وشعبها • بل لعل أكثرها قسوة وايلاما انه لم يقع عليه عبء امداد جيشـــه فقط بل كان عليه ان يقـــدم الكثير من المعونات المادية والعينية للجيش العثمانى الذى اشترك فى تلك الحرب ، حرب اليونان •

ومع ثقل هذه الأعباء ، فان المصريين تحملوها بشىء من التذمر حينا وبشىء من الصبر أحيانا ، لما تمتعوا به — فى المقابل — من أمن وسلام بفضل حزم محمد على . ولكن الأمر الذى لم يتحمله هذا الشعب ، هو أخطاء بعض الحكام المحليين واستبدادهم ، وكانوا من بقايا المماليك والشراكسة وقد كثرت انحرافاتهم على وجه الخصوص فى الأقاليم النائية من الصعيد • ولذا لا نعجب اذا استجاب جانب من هذا الشعب فى الصعيد الأعلى ، لداعية مغربى زعم فى ابريل ١٨٢٣ ان الله ورسوله ، قد بعثا به ليضع حدا لعسف محمد على وليعاقبه على اصلاحاته المناقضة للسنة والشريعة • وانتشر أنصار هذا الداعية فى اسنا وقنا • ونجحوا فى القيام بنوع من العصيان الشامل ، ولكن حركتهم حوصرت وأخمدت بعد قليل •

أدرك محمد على ببصيرته وماله من مرونة سياسية وادارية ، ان السبب الحقيقى لذلك العصيان هو مظـــالم حكام الأقاليم واستبدادهم • فأسرع الى عزل بعضهم ونقل البعض الآخـــر الى جهات أخرى • ثم قسم القطر بعد ذلك الى ســـبع مديريات • وأعد لها مجالس احـــال اليها جزءا كبيرا من السلطة التى كانت مركزة فى رجال القاهرة • كما انه وضع تنظيما جديدا ، كلف

بمقتضاه بعض المسئولين بالطواف بالأقاليم لمراقبـــة تصرفات حكامها ، وموافاته بما يقدمه سكانها من تظلمات ٠

تمرد بحارة اليونان

والآن نعود الى احداث الثورة اليونانية ودور الجيش المصرى فى اخضاعهـــا ٠ فبرغم ما اتصفت به تلك الثـــورة من عنف ، وبرغم ما اتصف به اليونان من حماس وطنى ، ومن اســـتعداد لتقديم تضحيات بالغة فى النفس والنفيس ٠ الا أن ذلك لم يمنع البحارة اليونان المنضمين الى تلك الثورة من التوقف أو الاضراب عن القيام بعملهم المكلفين به من قبل قادة الثورة الا وهو مراقبة تحركات الاسطول المصرى ٠ وكان سبب تذمرهم واضرابهم عدم دفع رواتبهم مما اعتبروه نوعا من الاستهانة بدورهـــم الخطير فى نجاح تلك الثورة ٠

وما كاد يصل خبر ذلك الاضراب لابراهيم باشا حتى وجدها فرصة لا تعوض ٠ فخرج فى يناير ١٨٢٥ من مأمنـــه فى خليج سودا واتجه الى مودون على الســـاحل الجنوبى الغربى لليونان حيث أنزل جيوشه فى ٢٤ فبراير ١٨٢٥ ٠ واســـتطاع ان يهزم اليونانيين بسهولة أمام نافارينو التى سقطت فى يده فى ١٨ مايو ٠ وفى الشهر التالى استطاع ان يحتل تريبولتزا Tripolitza فى وسط بلاد اليونان ٠ ولما تصاعدت فى وجهه مقاومة الثوار اليونان رد عليهم باحراق محاصيلهم والاستيلاء على مواشيهم ٠

ويبدو ان الثوار اليونان لم يفطنوا الى مالديهم من امكانات بحرية كبيرة ، كان من بينها امكان قيامهم بضرب مصر ذاتها فى موانيها ٠ هذا اذا استثنينا عمليـــة واحدة تسللت فيها احدى

المراكب اليونانية الى ميناء الاسكندرية فى ١٠ أغسطس وحاولت اشعال النار فى السفن المصرية الرابضة فى مياهه . ولكن محاولتها لم تنجح واتفق اذ ذاك أن كان محمـــدا على متواجـدا فى قصر رأس التين . فلما شاهد تلك المحاولة قفز مسرعا وأصدر تعليماته بضرورة اقتناص تلك السفينة ولما تعذر ذلك كلف عدة ســفن مصرية بمطاردة أى سفينة يونانية يعثر عليها فى المياه المصرية . وفى ١٢ أغسطس وردت أنباء مفادها نجاح اليونان فى احراق مركب تحمل أخشابا واردة لمصر من ســاحل الليريا ســاحل يوغوسلافيا . وكان هذا فوق احتمال محمد على فما كان منه الا أن اعتلى ظهر أول سفينة وجدها وخرج جائبا مياه البحر الأبيض لمدة أسبوع بحثا عن السفن المصرية ومطاردا لليونانية .

مصر تتحمل أعباء الأسطول العثمانى :

ما كاد محمد على يبتعد عن الاسكندرية ، حتى حدثت مفاجأة غير متوقعة ، تكشف عن مدى استغلال الدولة العثمانيــة للبلاد التابعة لها . فهى لم تكتف بالقوة العسكرية التى أرسلتها مصر لاخماد الثــورة اليونانية مع ما فى ذلك من أعباء باهظة ، المتحمل الوحيد لهــا هو الشعب المصرى . بــل أضافت على ذلك الشعب الفدائى تحمل أجور ورواتب الجند العثمانيين والمؤن اللازمة لهم .

ذلك انه فى اليوم التالى لرحيل محمد على فى رحلته البحرية للكشف والمطاردة . وصل الى الاسكندرية أسطول تركى يحمل على ظهره خسرو باشا ويطلب دخول الميناء ومقابلة محمد على . هذا الاسطول غادر ميدان المعركة الدائرة حول ميسولونجى . فبينما كان ابراهيم يهاجمها برا كان على الاسطول العثمانى ان يعاونه بمهاجمتها برا . ولماذا أخذ الاسطول العثمانى ذلك الموقف

المثير للريبة ؟ ··· ان حجته فى ذلك انه كان فى حاجة شديدة الى التعزيز ·· فى حاجة الى مدد والى مال · ولكنه بدلا من اللجوء الى الدولة العثمانية العظيمة !! لجأ الى تابعتها المرهقة ليضاعف عليها الأعباء ·

أدى وصـول هذا الاسطول العثمانى بتلك الصورة المفاجئة الى رواج اشاعات عديدة ، على حد قول المؤرخ الفرنسى المعاصر دوان Douin ، مؤداها ان النية متجهة الى عزل محمد على عن ولاية مصر ، خاصة وان محمد على مجرد من جيوشه عاجز حتما عن القيام بأى مقاومة · ومثل ذلك السلوك ومثل تلك المؤامرات لم تكن أمرا مستبعدا عن السياسة العثمانية فى ذلك العصر ·

وأيا كان ما أبطنه خسرو فان محمد على قابل خسرو باشا فور عودته للاسكندرية فى ٢٠ أغسطس ١٨٢٥ بكل ترحاب · وتبادل كليهما التحيات والمجاملات والأمانى الطيبات · ثم طلب خسرو باسم الباب العالى من محمد على تقـديم قائمـة طويلة مما يحتاجه اسطوله من مال ومؤن · فأمر محمـد على باعداد كل ما يحتاجه خسرو وتسليمه له فورا ·

سقوط ميسولونجى واثينا ·

عندما رحل خسرو باشا فى اكتوبر الى بـلاد اليونان افترق الاثنان كأصدق صديقين ولم لا ··· ؟ ومحمد على يقدمه على نفسه فى كل تحرك فلا يجلس الا اذا جلس ذاك · واذا شرع ذاك فى الوقوف سبقه فى القيام وهلم جرا ! ثم ·· لم لا أيضا ··· ؟ وقد حصل خسرو على جميع قائمته على حساب شعب مصر ·· ثمانون ألف ريال ليدفع منها رواتب رجاله وجنده ، ··· وسفن محمد على الجديدة ، ··· وألف وخمسمائة فارس ، وثمانية آلاف جندى ·

حصار ميسولونجي

وهكذا أمكن بفضل هذه الامدادات المصرية وبفضل ضغط ابراهيم باشا برا على ميسولونجي وحصارها تم تحطيم مقاومتها نهائيا واستسلامها ٠

ولسقوط ميسولونجي قصة مثيرة تستحق ان نذكرها ٠ فقد تولى أمر حصارها واخماد ثورتها أولا القائد التركي رشيد باشا ولكنه اضطر لرفع الحصار عنها في ١٣ يناير ١٨٢٤ ٠ فأصدر له السلطان أمرا موجزا في كلمتين « ميسولونجي ٠٠٠ أو ٠٠٠ رأسك » ٠ فهاجمها ثانية باستماتة في عام ١٨٢٥ ولكن بلا جدوى ٠ وعندئذ استنجد السلطان بابراهيم باشا ٠

وأهمية ميسولونجي انها تعد بحق عاصمة اليونان الغربية بالاضافة الى انها تقع على مقربة من الفتحة الشمالية لخليج ليبانت ٠ وكانت لموقعها الممتاز ، مركزا لتجميع مهمات القتال وللاتصال بالمراكز الأوربية واللجان المتعاطفة مع ثوار اليونان ٠

سار ابراهيم على رأس ١٨ أورطة تعدادها عشرة آلاف مقاتل، وخمسمائة فارس الى باتراس ٠ وعبر الخليج في فبراير ١٨٢٦ ، بعد ان ترك جنوب اليونان (الموره) تحت قيادة الكولونيل سيف الذي اتخذ تريبولتزا مقرا له ٠

اشترك ابراهيم ورشيد باشا في حصار ميسولونجي ٠ وتظاهر الثوار بالانسحاب فسارعت القوات المصرية الى مطاردتهم حيث وقعت في فخ منصوب عبارة عن منطقة بثت فيها الألغام الأرضية ، مما كبدهم خسائر فادحة خلال اجتيازها ثم في المعركة التي دارت عقب ذلك ، قدرت بثلثمائة قتيل ٠

قرر ابراهيم بعد ذلك الاكتفاء باحكام الحصار حول ميسولونجي لتجويعها وارغامها على الاستسلام ٠ فأحكم قبضته على جميع المنافذ البحرية التي أهمل أمرها رشيد باشا ٠ وازاء ذلك اتفق

المحاصرون مع القائد اليونانى كرايسكاكى ، وكان معسكرا قرب المدينة ، على مهاجمة الجيش المصرى فى ليلة ٢٢ ابريل ١٨٢٦ من الخلف ، حتى ينشغل بأمره ، مما يتيح لهم فرصة الافلات . ولكن فرقة مصرية وضعها ابراهيم على قمم الجبال المجاورة للمدينة كشفت هذه الخطة . وبينما تصدى ابراهيم لجيش كرايسكاكى ، صبت تلك الفرقة نيرانها على المتسللين فاضطروا الى الارتداد للمدينة دون نظام . فلحقت بهم القوات المصرية ودخلت المدينة فى أعقابهم .

وعندما ضاقت السبل بالبقية الباقية من سكان المدينة ، اجتمع فى مستودع للذخيرة نحو ألفى فرد بين شيخ وطفل وامرأة ، واتفقوا على ايثار الموت على التسليم . وأشعلوا البارود فانفجر المكان بمن فيه . أما المصريين فلم تقل خسارتهم عن ألفى رجل خلال ذلك الهجوم .

وعقب سقوط ميسولونجى أصبح الطريق الى عاصمة اليونان العريقة ، أثينا ، مفتوحا . فتقدم اليها جيش مشترك وعجز القائد اليونانى كرايسكاكى والفرنسى فافييه عن نجدتها . فلجأ الثوار الى الاحتماء بمرتفعات الاكروبوليس ولكنهم اضطروا للتسليم فى يونيو ١٨٢٧ مقابل عهد بالحفاظ على آثارهم الاغريقية .

أصبحت حالة الثوار بعد ذلك داعية لليأس . وتركزت حركتهم فى نوبلى بالمورة وفى جزيرة هيدرا القريبة من أثينا . وأصبح من الواضح فى نظر الدول الأوربية التى كانت تتتبع أحداث اليونان ، ان العامل الرئيسى الذى قلب ميزان القوى فى وجه الثورة ، لم يكن الا التدخل المصرى والجيش المصرى ، بعد أن فشل الجيش العثمانى فى اخمادها على مدى السنوات العديدة السابقة .

الفصل السادس

مصر والسياسة الأوربية

مصر والسياسة الأوربية

أدرك محمد على بعد انتصاراته فى بلاد العرب أولا ثم فى كريت واليونان ثانيا ، بما يمكن أن يكون له ولمصر من وزن دولى اذا استطاع أن يلعب على ساحتهـا بما لديه من أوراق • ورأى أن يبدأ بزيادة قواته البرية النظامية لكى تصل الى مائة ألف جندى فور انتهائه من اخماد ثورة اليونان •• وأخذت « الأحـلام تراود محمد على » على حد تعبير المؤرخ البريطانى دودويل بمد نفوذه عبر دجلة والفـرات • ونراه يخاطب مبعوثا فرنسيا بقوله ان السيف قد وفر له القوة « ••• وانى بلا شك أكون ناكرا لجميله لو لم استخدمه ثانية فى خدمة الدولة العثمانية وفى سبيل انقاذها » • ولكن الفرنسى تســاءل عما يكون عليـه موقف انجلترا من آماله تلك • ؟ « •• فهل سيتركون لك فرصة لتحقيق ما تصبو اليه ؟ » •

كان من الواضح فى رؤية محمـد على بل وفى رؤية جميع الساسة ، أن القوة الكبرى ذات التأثير الكبير على الأحداث لم تكن الا بريطانيا • ولم يكن من السهل على محمد على تحقيق أحـلامه

ومشروعاته ان لم يتفاهم مسبقا مع بريطانيا • ويرى دودويل ، ولعل في رأيه جانب من التحيز لوطنه ، ان التفاهم مع انجلترا يتعذر التوصل اليه بحيث يكون ايجابيا دون أمرين ، فلابد أن يكون لمصر أولا كيان سياسى دولى معترف به بعيدا عن التبعية لتركيا ، ولابد ثانيا ان يكون لدى محمد على ما يساوم به أو عليه •

ما هى الأوراق التى تملكها مصر أو يملكها محمد على مما يصلح للمساومة ؟ لعل الورقة الأولى هى أهمية الموقع الجغرافى لمصر على طريق الهند • وقد عقد محمد على اتفاقا بالفعل منذ عام ١٨١٠ مع شركة الهند الشرقية البريطانية لنقل تجارتهم ورجالهم عبر طريق السويس البرى • ولكن بريطانيا فضلت فى كثير من الأوقات استخدام طريق رأس الرجاء البحرى على طريق السويس البرى • اذن ففائدة الطريق البرى أصبح مشكوكا فى أمرها ، ولم تعد صالحة كورقة للمساومة •

واذا كان من المتعذر الآن على محمد على ان يتخذ من طريق السويس ورقة للمساومة ، فقد وقعت فى يده ورقة رابحة يمكن اتخاذها أساسا للمساومة • ألا وهى انتصارات مصر وابراهيم فى بلاد اليونان التى أثبتت أمام دول أوربا مدى قوته •

لقد أيقظت ثورة اليونان فى أذهان أوربا والأوربيين الأمجاد العظيمة للاغريق وحضارتهم ، كما درسوها فى معاهدهم التعليمية ، وكما تغنوا بشعرها وتشبعوا بأساطيرها • وتصورت شعوب أوربا وحكوماتها وخاصة فى انجلترا ، ان تلك الثورة ما هى الا ولادة ثانية للحرية التى نبعث من أثينا ومن مدن اليونان • ولكن سرعان ما تبين لأوربا بصفة عامة ولانجلترا بوجه خاص ، ان شعارات الحرية التى اشتعلت فى بلاد اليونان باسرها على وشك ان تخبو فى بحر من الدماء على حد تعبيرهم • فانتابهم شعور

مؤيدين بالاحباط مع رغبة عارمة فى انقاذ أولئك الثوار البؤساء .. وخاصة بعد ان وصلتهم أنباء مبالغ فيها عن قسوة الأتراك العثمانين وانتشرت الروايات والأقاصيص التى تذكر عن لسان إبراهيم باشا ، إنه عازم على استئصال شأفة الأمة اليونانية وتطهير الأرض منهم . وتحت ضغط المشاعر العامة فى بريطانيا ، المتعاطفة مع اليونان ، رأى كاننج أن الأمر يتطلب موقفا بريطانيا خاصا . فكتب الى قريبه – سفير بريطانيا فى استانبول قائلا : « ان بيع اليونانين بيع الرقيق .. والاساءة الى الشعب اليونانى العريق .. وتعبئة بلاد اليونان بالمهاجرين من البلاد الشرقية ! ومحاولة ادخال « قوة بربرية «Puissance barbaresque فى هذه المنطقة ... حقائق غريبة فى نوعيتها . ولا يمكن السكوت عليها أو التغاضى عنها مما سيضطرنا الى تغيير لهجتنا .. ان لم يكن أسلوبنا فى العمل » .

وحقيقة موضوع الأسرى اليونانيين (١٦) ان الجيش المصرى المحارب ، تخلصا منهم ومن أمر اعالتهم أو حراستهم مع ضعف امكانياته التموينية ، فضل أن يرسل عدة أفواج ممن أسروا خلال المعارك سواء على أرض الجزر اليونانية أو أرض اليونان ذاتها الى مصر . ويقدر عدد من أرسلوا بنحو ثلاثة آلاف بيع معظمهم كرقيق . ولقد آثار هذا الحدث بطبيعة الحال ثائرة جيل كان ينادى بمحاربة تجارة الرقيق . ولعله من الصعب تحميل محمد على أو ابنه ابراهيم المسئولية الكاملة عن هذا الحدث . ويبدو ان التخلص من مسئولية اعالتهم مع اعطائهم وضعا مناسبا والافادة من خبرتهم كانت وراء هذا التصرف من قبل بعض المسئولين الاداريين . بدليل ان معظمهم الحق بالبيوتات الكبيرة القادرة فى مصر . ولا نقصد بهذا تبرير هذه الواقعة بقدر ما نقصد الى وضعها فى حجمها الطبيعى بعيدا عن المبالغات . وقد أرسل القنصل

البريطاني مشيرا الى تلك الحادثة ، ومؤكدا ان محمد على تدخل بشخصه وباستخدام أمواله فى ســـبيل تحرير هؤلاء الأسرى • وذكر المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « عصر محمد على » ان كثيرين من أولئك الأسرى رفضوا التحرر • وآثروا البقاء تابعين لكبار رجال الدولة المصرية • وقد دفع المؤرخون المحدثون تهمـة استغلال أولئك الأسرى أو اســاءة معاملتهـم • وبينوا ما بذله محمد على من مال لاخلاء سبيل من بيع بمصر منهم ورده الى بلاده • وأشادوا بحسن معاملته لليونانيين المقيمين بمصر بصفة عامة فى أدق الظروف •

وكيفما كان الأمر فان ما أشـــيع فى أوربا من ان أحفـاد الشعب الاغريقى العريق سيباعون باجمعهم بيع الرقيق ، لعب دورا هاما فى دفع القوى الأوربية للتخلى عن موقفها السلبى وفرض عليها مزيدا من التدخل •

وكان من العوامل المساعدة على ذلك ان بحـــارة اليـونان المشتركين فى الثورة لم يتورعوا ، بسبب شـــدة حاجتهم للمال والمؤن ، عن سلب السفن الأوربية التى تقع على طريقهم سواء أكانت فرنسية أم نمساوية أم بريطانيـة • ولما كانت الدولة العثمانيـة عاجزة تماما عن ردعهم •• كان لزاما على القوى الأوربية ان تتخذ موقفا ايجابيا ما لتضمن على الأقل •• ســلامة تجارتها وطـرق مواصلاتها •

ان احداث الثورة اليونانية كما رأينا والملابسات التى أحاطت بها وانبنت عليها لفتت نظر القوى الأوربيـــة الى تلك البقعـة وما يجرى بداخلها • وكان على كل من تلك القوى أن تتخذ خطا سياسيا خاصا بها يتفق مع مبادئها أو سياستها أو مصالحها •

ولكن أين هو موقع مصر وحاكمها محمـــد على من خريطة السياسات والصراعات الأوربيـــة • وهل من ســـبيل يستطيع اتخاذه •• ؟ أو ثغره يمكنه ان ينفذ منها ••• ؟ لاســتغلال ذلك التنافس الواقع بين الدول الأوربيـــة ••• ؟ بل والصراع القائم بينها ليلعب من خلاله بأوراقه • ويساوم بها وخاصـــة بريطانيا باعتبارها أكبر قوة أوربية • وذلك لصـــالح مصر وطموحاته من أجلها ومن أجل مصلحته الخاصة •

لقد اتفقت ســياسة كل من النمســا وانجلتــرا وقطبيها السياسيين اذ ذاك مترنيخ وزير النمســا وكاسلريه «١٧» ثم كاننج وزيرا خارجية انجلترا على التوالى ، •• اتفقت سياستهما فى أسسها وخطوطها الجوهرية نحو المســألة اليونانيـــه ، على أساس أنها ثورة داخلية محلية تدخل ضمن شـئون الدولة العثمانية الداخلية • ومن ثم فمن واجب الدول العظمى تطبيقا لقرارات مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ان تمنع أى دولة خارجيـــة من التدخل لصالح الثوار ، وخاصة اذا كانت تلك الدولة هى الدب الروسى • ولذا فان النمسا قبعت على حدود روســيا متيقظة للحيلولة بينها وبين أى محاولة منها لتحقيق أطماعها عن طريق التدخل لصالح اليونان • بل ان جيوش النمسا أخذت موقفا متحفزا ، للقفز على روسيا اذا ما حاولت تلك الاشتباك مع الدولة العثمانية ، دفاعا عن الثوار اليونان وما يتعرضون له من مذابح واضطهاد • وكان من حق ارستقراطية النمسا ، ومن حق نبلائها وبيتها الامبراطورى ، ان ينظروا الى الحركة اليونانية القومية باعتبارها مرضا أو وباء يخشى انتشاره أو تفشيه فى ســهول الدانوب ، مما قد يؤدى لانهيار امبراطوريتهم وتفككها •

وكان مترنيخ يتزعم اذ ذاك سياسة الحفاظ على الملكيات والامبراطوريات الشرعية • ويعارض جميع الحركات التحررية للشعوب والقوميات الوطنية ، ادراكا منه لهذه الحقيقة : فمن المعروف ان إمبراطورية النمسا ، حوت فى داخل حدودها عديدا من القوميات التى تختلف عن العنصر النمساوى فى الأصل واللغة ، مثل المجر والسلاف والكروات والألمان • وجميع تلك القوميات كانت تتحين الفرص بدورها للانفصال عن الامبراطورية النمساوية والاستقلال بذاتها الأمر الذى سيتحقق فيما بعد •

أما الوضع فى بريطانيا فكان يخالف تماما أوضاع النمسا • اذ انها كانت تتمتع بحياة قومية ناضجة ، لايشوبها الخوف من ظهور قوميات محلية متعارضة معها • فالقومية الايرلندية أمكن احتواؤها • والقومية الهندية لم يكن قد قدر لها ان تستيقظ من سباتها بعد • ولما كان التعليم السائد فى بريطانيا اذ ذاك يهتم بالدراسات الكلاسيكية القديمة ، الاغريقية والرومانية ، مما شبع البريطانيين بروح الاعجاب بالحضارة الهيلنية • ولما كانت الحياة البرلمانية الديموقراطية قد نمت فيهم حرية الرأى والقدرة على التعبير عنه بشجاعة • فقد أظهروا تعاطفا كبيرا مع تلك القومية الصغيرة التى كانت تناضل بلا أمل من أجل حريتها • وعندما مات الشاعر البريطانى العاطفى بيرون فى ميسولونجى •• ، شهيدا للحضارة الهلينية ••• ، كما اذيع عنه اذ ذاك ، طغت على أحاسيس الانجليز موجة عارمة من التأثر والتعاطف مع أحفاد الاغريق • وتغلبت تلك الموجة على كل شىء ، وأزاحت أمامها أى تمسك بمبدأ أو قاعدة سياسية ، وعمت الصحف والمجتمعات والطرقات • ولم يحاول بريطانى أن يقف قليلا ليتحقق من نوعية الثوار ، وكم من بينهم يمتون الى تلك الحضارة الهلينية

العريقة ٠٠ ؟ التى لقن شبابهم الاعجاب بها فى ردهات اكسفورد وقاعات كمبردج ٠

وبرغم ان تركيا كانت لاتزال من الوجهة الرسمية الصديق الصدوق لبريطانيا ، الذى يتحمل مسئولية تحقيق مبدأ التوازن فى مواجهة الأطماع الروسية ، نحو منطقة الشرق الأوسط ٠ الا أن الشعب البريطانى كان على اسـتعداد لتأييد كاننج عندما اقتنع بأهمية الدفاع عن أبناء الحضارة الاغريقية وثورتهم ٠ واشترك مع فرنسا وروسيا فى محاولة ٠٠٠ وفقا لما أشـيع ٠٠ لانقاذهم من الفنـاء ٠

ان الاعتقاد الذى سيطر على كاننج هو ان تدخل روسـيا بمفردها بطريق الحرب ، لتسوية النزاع العثمانى اليونانى معناه باختصار شديد ، انها ستبتلع اليونان فى أول وجبة ٠٠ ثم تركيا فى الوجبة التالية ٠٠٠ ! ولذا فان انجلترا لم تغفل لحظة واحدة ولا طرفة عين عن مراقبة روسيا عن بعد ، حرصـا منها على عدم استئثارها بالتدخل عامة ٠٠٠ ، أو بالتدخـل منفردة ٠٠ بصفة خاصة ٠ وذلك حتى لا يصل الدب الروسى الى البحار الدافئة ٠٠ ، أى الى منطقة نفوذها وميدان تجارتها فى البحر الأبيض ، تنفيذا للخطوط الأساسية للسياسة البريطانيـة التى وضعها وزيرها الداهية بت Pitt الأصغر ، ومحورها الابقـاء على تركيـا كحائط مانع فى وجـه الدب الروسى ٠ فانجلترا اذن ٠٠٠ ، ويشاركها فى ذلك الى حد ما فرنسـا ٠٠ تريان ان الامبراطورية العثمانية برغم ما هى عليه من ضعف وانحـلال داخلى لا تحمل للمصالح الأوربية فى الشرق أى تهديد ٠ وانمـا التهديد الأكبر لاينشأ الا اذا حاولت روسيا الاعتداء على تركيا أو اخترق أملاكها للوصول الى البحر الأبيض ٠

أما سياسة روسيا منذ أوائل القرن التاسع عشر ، ان لم نقل منذ عهد بطرس الأكبر في القرن السابع عشر ، فكانت تتلخص في الزحف البطيء جنوبا صوب سواحل البحر الأسود . فروسيا اذن تضع عينها دائما على استانبول كهدف نهـــائى . واتجاهها دائما الى المياه الدافئة في البحر الأسود والبحر الأبيض ان أمكن . ولذلك فان مطامع روسيا شكلت الخطر الأكبر على الســــياسة البريطانية والسلام في المنطقة .

ومع ذلك ظل الهدوء والبطء يسودان السياسة الأوربية طوال بقاء الاسكندر الأول (١٨٠١ ــ ١٨٢٥) قيصرا على روســـيا . فروسيا تعاطفت فعلا مع ثوار اليونان ، لأن هناك روابط اجتماعية وطائفية لاينكرها أحد بينهما . ولكن القيصر وطن نفسه ، تحت تأثير مبادىء مترنيخ ورغبة الدول الكبرى ، على احتـرام مبـــدأ الشرعية الملكية ضد أى حركات ثورية أو انشقاقات داخليــــة . ولذلك فانه عندما شبت الثورة فعلا ، امتنع عن تقديم العون الذى طمع فيه الثوار اليونان وأملوا فى الحصـــول عليه كمـا ذكرنا سابقا .

النمسا تزعمت تحت قيادة مترنيخ المناداة بمبدأ الشرعيـــة ومتابعة تنفيذه . لذا هاجمت سياستها وحكومتهـــا أى تحرك قومى أو وطنى فى أى مكان . واتخذت من جيوشــــها رقيبا متيقظا لأى تحرك لصالح اليونان خاصة اذا جاء من قبل روسيا بالذات .

بريطانيا احترمت مبدأ الشرعية بصفة عامة .. الا أنها تعاطفت حكومة وشعبا مع الثوار اليونان . وسعت بجدية لازالة الضغط الواقع على أولئك الثوار ، مع الابقاء على سياستها التقليدية التى قامت على الاحتفاظ بكيان الدولة العثمانيـــة وسلامتها ، تأمينا لسياستها فى الشرق الأوسط والبحر الأبيض .

حكومة فرنسا وقادتها تعاطفوا بدون شك مع محمد على الذى اتخذ من الفرنسيين الغالبية العظمى من مستشاريه · ولكن أسرة البوربون التى عادت الى عرش فرنسا على اسنة الحراب الأجنبية بعد القضاء على آثار الثورة الفرنسية وبقاياها اتصف موقفهـا بالتخاذل لعدم استنادها الى تأييد شعبى وغلب الجمود والتردد على سياستها الخارجية · كما اتصفت سياستها الخارجيـة فى كثير من المناسبات بالتبعية للسياسة البريطانية ·

محمد على ، من خلال اتصالات قناصل الدول الأوربية فى مصر به ومن خلال الأحاديث المتبادلة بينه وبينهم · بالاضـافة الى تتبعه الدائم ، وبوعى ناضج لمجرى الأحداث العالمية ، كان على ادراك تام لخلاصة الموقف الدولى · ولذلك فانه حاول ان يجعل من حرب اليونان مجالا لصفقة رابحة ··· يساوم بها فيجبر الدول على الاعتراف به وبقوته · فهو اذن لم يشترك فى حرب اليونان حبا منه للسلطان ·· ولا كرها لليونان ·· وانما ليتخذ منها صفقة أو ورقة رابحة يبادل بها ما هو أفضل منها لمصر وله ·

الفصل السابع

التحرك الأوروبى

التحرك الأوروبى

كان من الممكن أن يظل ميزان القوى مستقرا على ما هو عليه لفترة غير قصيرة فى البلقان .. وكان من الممكن أن تجرى مفاوضات بين محمد على والدول الأوربية خلال ذلك . ولكن وفاة القيصر اسكندر الأول قلبت الميزان . اذ تولى من بعده قيصرا على روسيا شقيقه الأصغر نيقولا الأول (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) الذى لم ير من وراء هذا التسويف خيرا يرجى . فعجل بالعمل وفاجأ السلطان العثمانى بانذار خطير تضمن شروطا صارمة على قمتها الانسحاب التام من بلاد اليونان .

خشى كاننج وزير خارجية بريطانيا أن يحل الروس المسألة على هواهم . فعجل بارسال الدوق ولنجتون مبعوثا الى روسيا ليؤكد للقيصر تأييد انجلترا لآرائه . ويبين له انها لاترى مانعا من منح اليونان استقلالا داخليا مع بقائها تحت سيادة السلطان .

وبناء عليه تم الاتفاق بين روسيا وانجلترا ثم فرنسا على خطة موحدة . ووقعت فى ٦ يوليو ١٨٢٧ المعاهدة المعروفة باسم معاهدة

لندن بين تلك الدول الثلاث • وأهم ما جاء فى تلك المعاهدة النص على التدخل أو التوسط بين الدولة العثمانية واليونان لتقرير مصير المسألة اليونانية ، على قاعدة استقلال اليونان الداخلى أو الذاتى مع الابقاء على السيادة العثمانية ، وجاء بين نصوص تلك الاتفاقية أن تطلب الدول الثلاث الموقعة عليها من الجانبين وقف القتـــال وتجميد أى تحـــرك تمهيدا للوســـاطة بينهما • فاذا لم يقبلهـــا الباب العالى فى مدى شهر من ابلاغه اياها ، كان لهم تنفيذ ما اتفقوا عليه بالقوة • ويتلخص اجراء القوة المشار اليه فى محاصرة ابراهيم باشا وجيشه الموجود فى اليونان حصارا بحريا بواسطة الأساطيل البحرية حتى يضطر للاذعان •

أرسلت الدول الكبرى مبعوثيها الى الباب العالى ولكن أولئك السفراء لم يحصلوا على غير جواب واحد هو ••• « ان ثورة اليونان مسألة داخلية بحتة ، ليس للدول الكبرى أى شأن بها ، وليس لأى من تلك الدول الحق فى التدخل بتاتا •• » •

وفى ١٦ أغسطس ذهب ثلاثة مبعوثين يمثلون الدول الكبرى الثلاث •• روسيا •• وانجلترا •• وفرنسا الى الريس أفندى وزير خارجية الدولة العثمانية • وقدموا له مذكرة تحـــوى وجهة نظر الدول الأوربية الكبرى من المسألة اليونانيـــة ولكنه رفض قبولهـــا •

وفى ٣١ أغسطس ١٨٢٧ أعاد المبعوثون الكرة لثالث مرة • ولكن الريس أفندى عقب مناقشـــة جـــافة تدل على عدم تقديره للموقف ولعواقبه ، رفض تدخل الدول • ولا نريد التطرق لما دار من حوار طريف بين الريس أفندى ومبعوثى الدول الأوربية الثلاث مما هو موجود نقلا عن الوثائق التركية فى كتاب :
George Douin : Navarin

وانما نكتفى بما أسفر عنه ذلك الحوار فى النهـاية ، من اصرار الباب العالى على رفض أى تدخل من قبل الدول الأوربية . تلك النتيجة التى أدت الى التجاء الدول الأوربية الى استخدام أحد بنود الاتفاقية ألا وهو اعلان الحصار البحرى حول جيش مصر بقيادة ابراهيم باشا فى بلاد اليونان .

أما سر اصرار الجانب التركى على رفض الحلول المعروضـة عليه رغم تهديد الدول الأوربية الكبرى (روسيا + انجلترا + فرنسا) فيرجع الى اعتقاده بأن ذلك التحالف الأوربى كان تحالفـا هشا غير ثابت . وان الخلاف بين أولئك المتحالفين وخاصة روسيا وبريطانيا سرعان ماسيظهر بسبب تضارب المصالح . أضف الى ذلك العامل أن مترنيج أيد موقف الدولة العثمانية استنادا الى المبدأ المقدس الذى وضعه ألا وهو ضرورة اخضاع ثورات الشعوب ضد حكوماتها الشرعية فى أى مكان . وقد وضح أخيرا .. ان مبعوث النمسا فى تركيا حرض السلطان على الاسراع فى القضاء على ثورة اليونان ، حتى يغلق الباب أمام محاولات التدخل من الدول الثلاث المتحالفة .

وأدى هذا وذاك الى شدة اصرار السلطان ورجاله على موقفهم الرافض . حتى ان السلطان أقسم فى ساعة غضبه ... ودموعه تسيل على خديه .. ليقتلن كل يونانى فى مملكته .. واذا لم يصد هذا الأوربيين .. ليقتلن الأرمن وغيرهم من رعاياه ، بل ليخلطن دماء الأفرنج بدماء رعاياه من أهل الذمة .

أما محمد على فلم تراود خاطره تلك الأفكار الصبيانية ، فان كل ما كان يهدف اليه هو ، تزايد قوته سواء داخل الامبراطورية العثمانية أو مستقلا عنها ، اذا سمحت له تطورات الموقف بذلك . وخلال ذلك لم يكف محمـــد على لحظة واحدة عن تتبع الأحداث

العالمية بعين يقظة . وشعر بتحرج الموقف عندما علم بانضمام لورد كوشارين Lord Cochrane ، أحد رجال البحر المعروفين بالبراعة والشجاعة الى الأسطول اليوناني ، كما أنه تلقى ، بكثير من الفهم وبروح أخرى مخالفة لروح الريس أفندى ، الاعتراضات والتهديدات البريطانية .

والواقع ان محمد على عمل كثيرا على التقرب من انجلترا حتى قبل قيام الثورة اليونانية . ففى عام ١٨٢٠ كتب سولت Salt الى حكومته ليطلب التصريح له بزيارة لندن لأسباب صحية ، وأيضا لعرض بعض الأمور السياسية فيقول « ان رجلنا الواعى هنا (اشارة الى محمد على) طلب منى الاتصال بكم لشرح أمور هامة لا يمكن تسجيلها أو ايضاحها على الورق » .

وفى عام ١٨٢٦ وصل ستافورد كاننج S. Canning سفير انجلترا فى استانبول الى ادراك حقيقة واقعية . وهى ان أفضل الطرق لأرغام السلطان العثمانى على التخلى عن عناده واصراره ، هى الحصول على تأييد باشا مصر .. الظهير القوى الذى يرجع اليه والى الشعب الذى يحكمه فضل انتصار الدولة العثمانية .

وبناء على ذلك كتب الى سولت (قنصل انجلترا فى مصر) يسأله ، فيما اذا كان الباشا يرى أن الأفضل له الانسحاب من الحرب ، والفوز بنصيب من الجزية التى ستفرض على اليونان ، وربما ضمن له الانجليز ولاية الشام أيضا وتبعيتها لمصر . وقد أنكر سولت ذلك وعده أمرا خياليا ، لأنه كان يعتقد ان محمد على يحارب ، مع السلطان عن اخلاص تام ، ولكنه لم يتمالك نفسه من الدهشة حين وجد ان العرض لقى من الرجل قبولا طيبا بل وترحيبا . ومن ثم بدأت جلسات حوار . أبدى فيها محمد على

حصافة طيبة ودهاء بعيدا . اذ بين محمد على أولا وقبل كل شيء ، استحالة حصول الانجليز على موافقة الدولة العثمانية على مطالبهم من استانبول .. فالديوان العالى يعانى من التدهور الشامل .. والسلطان رجل صلب الرأى ضيق الأفق .. « ولكن .. هناك وسائل أخرى لبلوغ أمالكم وأمالنا .. ولتحقيق الاتفاق والتعاون بيننا .. ولكن ما أود ان أعرفه هو ماهية العروض التى يمكن ان تقدمها لى بريطانيا كترضية أو تعويض فى حالة انسحابى من العملية .. » ثم يشير محمد على فى شيء من التحايل ، الى ان كل شيء سيبقى على ماهو عليه الآن حتى فصل الربيع . فاذا ما قدمت بريطانيا خلال تلك الفترة من العروض ما يدل على رغبتها الجادة فى كسبه وتعويضه لقبل عرضها والتمس الفرص لسحب القوات المصرية من اليونان . ثم يتابع محمد على كلامه مهددا « .. فاذا لم يتحقق ذلك فسأعبىء جميع قواتى وأستعين بما لى من نفوذ على السلطان وأجمع فى يدى القيادة العليا للاسطولين العثمانى والمصرى ثم أضع نفسى على رأس القيادة الحربية فى اليونان وأضع نهاية شاملة لمقاومة الشعب اليونانى » .

وقد أدرك سولت ان محمد على يهدف لأمور أخرى تتعلق بمصالحه الشخصية . فاقبـــل عليه فى محـــاولة لسبر غوره يسائله عما يريد من بريطانيا . ومع ان الرجـــل أجاب بدهاء وبشيء من التواضع المصطنع بانه لايرجو أكثر من الحصول على مساعدتها وعلى خبرتها ، فى سبيل زيادة قوته البحرية ، بالاضافة الى تأييدها له فيما يسعى اليه من امتداد بلا قيود فى بلاد العرب . الا أنه لم يغب عن سولت ، ان الرجل يطوى فى نفسه أمرا أكثر أهمية وأكثر خطورة ، ألا وهو تأييد بريطانيا العظمى لاستقلاله عن الدولة العثمانية ، اذا تطورت الأمور بعد انســـحابه وقرر الانفصال بمصر وملحقاتها عنها .

بعد هذا بقليل وصل الى الاسكندرية سياسى نمساوى قدير ، موفد فى بعثة من قبل مترنيخ وهو بروكش أوستن Prokesch Osten • كان غرض النمسا من ارسال هذا المبعوث تحريض محمد على ضد الثوار اليونان • واقناعه بضرورة التعجيل فى ارسال حملة خلال الشتاء للسيطرة التامة على اليونان • وهدف النمسا من ذلك تحقيق سياستها القائمة على احترام الشرعية الملكية • وذلك بقطع الطريق على روسيا والقوى الأوربية اذا حاولت التدخل ضد الباب العالى • لأنه اذا نجح محمد على فى اخماد ثورة اليونان زالت التكأة التى يمكن ان تتخذها دول معاهدة لندن الثلاث للتدخل • ومن دلائل فطنة ذلك المبعوث النمساوى ، انه اكتشف المدخل الذى يمكن منه اقناع محمد على ، الا وهو المنفعة والفائدة • فبين له ان استقلال اليونان يعود على مصر باضرار كثيرة أولها الخطر المباشر على التجارة المصرية ، كما انه حاول اثارته ضد بريطانيا •• فسياسة الانجليز وما يقدمونه من نصائح مغلفة فى ثوب ناعم ، لا تهدف الا لاضعافه وتحطيم مكانته الكبيرة •

ولم يصمت محمد على ، بل وجدها فرصة لعرض شكواه على الباب العالى ، فهو غير راض عن مستوى العلاقات بينه وبين السلطان • ولا يوجد لديه استعداد لخدمة الدولة العثمانية التى لا تكتفى بعدم مكافأته على تضحياته ، بل انها تعمل على استنزافه واقامة العراقيل فى وجهه ، بما يثيره خسرو باشا ضده من فتن • ودسائس ، فى الوقت الذى تحاول فيه الدولة العثمانية استدراجه الى مشاكلها وتوريطه فى عداء الدول الأوربية الكبرى ، الأمر الذى لايعود عليه ولا على مصر بأى فائدة أو جدوى

وقد حاول بروكيش أوستن أن يطمئن محمــد على من ناحية موقف الدول الأوربية الكبرى ٠ وأكد له انها لكثير من الأسباب لن تقدم على التدخل علنا ضد تركيا ٠٠ وان النمسا بالذات تؤيد الباب العالى ومحمد على فيما يقومان به لاخضاع الثورة اليونانية ٠ ولكن ما كان محمــــد على ليسمح للبعثة النمساوية ان تقنعــه ، بالاستمرار فى حرب يستحيل التغلب فيها دون توافــر النية الطيبة والتعاون الصادق من جانب الباب العالى ٠ « ٠٠٠ فمصر التى تتحمل الآن النصيب الأكبر من أعباء القتال فى اليونان وتتولى تموين الجيش وامداده بكل حاجاته تستطيع اذا انسحبت من تلك الحرب ان تحتفظ بقوتها وتكسب نفوذا كبيرا ٠٠ انى لا أرغب الا فى مصر ٠٠ ولا أطمع فى أكثر من فرصــــة من الهدوء مداها عشر سنوات أتمتع فيها بالسلام ٠٠ وانى لكفيل برفع مستواها بفضل مالها من موارد عظيمة وامكانات هائلة الى مرتبـــة الدول الأربع العظمى الأوربية ٠٠ انجلترا ٠٠ وروسيا ٠٠ والنمسا ٠٠ وفرنسا فتصبح مصر خامستهم » ٠ « ثم يقول « ماذا أفيد أنا من بلاد اليونان ٠٠ أو من كريت ٠٠ بل ومن جميع الجزر اليونانية ٠٠ ان كل أحلامى تعيش فى مصر ٠٠ فانا أريد ان أعمــل فيها ولها ولا أطمع الا فى فترة سكون » ٠

ان النتيجة التى خرج بها المبعوث النمساوى بعد ذلك الحوار الذى تم بينه وبين محمد على وامتد خلال عدة جلسات ، ان الشخص الوحيد الذى يستطيع اخماد ثورة اليونان وهو محمد على لم يعد راغبا فى اتمام عمله هناك ٠ ولكن لماذا لم يقتنع ؟ لقد استعان بروكيش بكل وســائل الاقناع والاغراء لكى يشجع محمد على على اتمام دوره : فهو تارة يحدثه عن نفوذ النمسا لدى الباب العالى ٠٠٠ ولكن محمد على يعلم واقعيـــا ان ذلك النفوذ لم يستطع

تخفيف المؤامرات التى تحاك ضده فى استانبول ! ٠٠ وتارة أخرى يحدثه عن عظم موارد الذخيرة التى يمكن تصديرها له من البندقية ٠٠٠ ولكنه يعلم ان هناك موارد أفضل فى فرنسا وغيرها من الدول والمدن الأوربية ٠٠ وأخرى يطمعه فى موارد الخشب من الليريا ٠٠ ولكن محمد على لديه موارد لاتقل عنها من جبل لبنان وبشير الشهابى ٠٠ ثم انه يتعرض لبعض الضغط باسم واجب الولاء للدولة العثمانية وما يفيد منه الشرق والاسلام من وراء ذلك ٠٠ ولكن هل يستطيع محمد على أن يؤدى ما يأمله من خدمة الشعوب الشرقية والاسلامية داخل اطار الامبراطورية العثمانية ، بينما ينظر اليه من قبلها بكل ريبة وشك ، وبينما تحاك له من رئاستها المكائد والدسائس الغادرة ٠

لم يقتنع محمد على اذن بأقوال مبعوث النمسا ٠٠ لا لأنه كان كارها للسلطان ولا زاهدا فى القضاء على ثورة اليونان ٠٠٠ ، ولا لأن المغريات التى قدمها له كانت غير كافية أو غير واقعية ٠ وانما لأنه كان يريد أن يفوز من الأمر بصفقة طيبة ، ألا وهى الاستقلال بمصر عن الباب العالى ٠ وكان يرى فى تصوره ان ذلك يمكن ان يتحقق اذا كسب انجلترا الى صفه ٠ وأخذ منها اقرارا مبدئيا باستقلاله ٠ وكيف يحصل منها على ذلك ٠٠ ؟ يتحقق ذلك فى رأيه اذا ساومهم على ورقة اليونان ٠٠ ينسحب بالجيش المصرى ٠٠ والأسطول المصرى ٠٠ والثمن أو المقابل المنتظر هو اعتراف بريطانيا به ، مستقلا على رأس مصر ٠ ولم لا ؟ أليس مثل هذا هو ما تعرضه انجلترا حلا لمشكلة اليونان ٠

ولكن الرياح لم تأت بما اشتهاه محمد على ٠٠ مضت الأسابيع دون ان تأتيه ردود مطمئنة من جانب الانجليز ٠ وعندئذ انتقل الى تنفيذ الشق الثانى من خطته ٠ ألا وهو تجميع القيادة فى يده

وضرب ثورة اليونان ضربة قاضية . وكانت القيادة العليا فى تلك الحرب ، مثار نزاع مستمر بين محمد على والباب العالى منذ عام ١٨٢٤ ، والآن وقد مضى وقت غير قصير منذ انشاء مصر لاسطولها البحرى ، وبعد أن أثبت ذلك الاسطول ورجاله كفاءتهم ، لم يعد هناك ما يبرر ترك القيادة البحرية العليا لخسرو وخاصة بعد ان أثبت عدم كفايته ، وقد رمى محمد على خسرو باشا بالبله والحمق وسوء التصرف ، واتهمه بالخيبة التامة فى العمليات البحرية التى جرت حول مسولونجى . وأعلن استحالة التعاون معه وطلب صراحة سحبه من قيادة الاسطول العليا . ولكن خسرو بقى فى منصبه بفضل رضاء السلطان عنه وبفضل ما كان له من أنصار فى بلاط استانبول وذهبت نداءات محمد على والحاحه من أجل ازاحته ادراج الرياح .

ازاء ذلك غير محمد على اسلوبه فى التعامل مع الباب العالى فارسل الى استانبول ، ولكن بصيغة الرجاء ، طالبا من السلطان تخفيف أعباء الحرب والقتال ضد الثوار اليونان عنه ، طالبا القاء ذلك الحمل على كتف سواه من الباشوات الذين لم تنضب بعد مواردهم المالية كما حدث له . وأعلن ان مصر قدمت أقصى ما تستطيع وانها قد استنزفت شعبا وموارد ولا تستطيع ان تقدم أكثر من ذلك ، ومن ثم فهى مضطرة للتوقف . وقد استخدم محمد على وسيلة التظاهر بالعجز ليصل الى غرضه دون الاشتباك مع الباب العالى ، وقال محمد على فى حديث له مع قنصل انجلترا : « يجب على السلطان رفع أعباء هذه الحرب عن كتفى .. وان كنت أتوقع منه ارسال أحد رجال بلاطه من ذوى المراتب العليا ليحاول اقناعى بالاستمرار فى الحرب . ولكنى لن أقبل بأى حال من الأحوال ذلك مالم يقبل طلبى الخاص بخلع خسرو باشا » .

ما الذى يدعو محمد على للادلاء بتلك الاعترافات لقنصـل انجلترا ؟ هل اتصف بالسذاجة ! أو البساطة ! الى هذا الحد .. الواقع أن محمد على يكشف للقنصل بذلك عن رغبته فى الانسحاب من الحرب علها تتشجع وتتفاهم معه • وفى ذات الوقت يوضح له استعداده للاستمرار اذا استجاب السلطان لطلبـاته وهكذا « يمسك العصا كما يقول المثل العامى من وسطها » وعلى انجلترا أن تختار بين كسبه أو خسارته •

ولكى يضع محمد على أقواله موضع التنفيذ ، أرسـل الى ابراهيم باشا لتجميد عملياته العسكرية • وادى ذلك الى تزعزع مركز رشيد باشا وفرقته أمام أثينا • واضطر البـاب العالى الى ارسال نجدة لمساعدته من قبله • بعد ان رفض ابراهيم القيام بأى تحرك • وهنا ادراك الباب العالى جدية محمد على فى موقفه وطلباته • ولأنه وجد نفسه منهكا بسبب كثرة حروبه وامتدادها • وشعر بعدم قدرته على الاستمرار فى مقاومة الثـورة اليونانيـة منفردا .. ، لم يجد بدا من ارضائه • وتحت ضغط الحاجة قبلت تركيا جميع طلبـاته وأعلنت فى ٩ / فبراير ١٨٢٧ تعيين نجيب محمد باشا « قبطان باشا » بدلا من خسرو باشا •

ومع استجابة الباب العالى لطلب محمد على نجـدة لا يظهر أى عجلة فى الأمر • حقا انه بدأ استعدادات واسعة لارسال حملة قوية • ولكن حتى منتصف شهر يونيو ـ أى لما بعد أربعة أشهر من استجابة السلطان لطلبه ، بقيت الأساطيل المصرية قابعـة فى ميناء الاسكندرية ، كما انحصرت الامدادات التى ارسلها لابراهيم باشا فى أضيق نطاق •

هل ذلك فى محاولة منه لاظهـار صدق ما ادعاه سابقـا للسلطان من استنزاف موادر مصر واستنفاد جهد أبنائها .. ام انه

فيه بذلك اتاحة مزيد من الوقت أمام انجلترا للتفاهم معه ، قبل ان يتورط نهائيا بارسال المدد البرى والبحرى . ولعل من دلائل ذلك انه استدعى قنصل انجلترا فى مصر عدة مرات . وفى كل مرة يضغط عليه ويحاول احراجه مطالبا برد سريع من انجلترا .. « فانا لا أستطيع تعطيل اسطولى وابقائه قابعا فى الاسكندرية بلا عمل مدى الحياة ! » .

ولم يقف الديوان العالى فى استانبول جامدا أو صامتا ازاء موقف محمد على السلبى فقد سجل ملاحظاته بشأن عدم حدوث أي تقدم عسكرى منذ استجاب السلطان لطلبـــه . وهذا أتاح الفرصة أمام خسرو باشا لاسترداد مكانته لدى السلطان والعودة الى الأضواء مرة أخرى .

وما كاد محمد على يعلم ان السلطان قد رضى ثانيـــة عن غريمه خسرو باشـــا ، وأعاده الى مركز الحظـوة لديه ، حتى ثار وصـــخب وأرســـل فى الحال الى دروفتى Drovetti قنصل فرنسا فى مصر ، حيث كشف له القنـــاع عن حقيقة آماله وأهدافه . وفى ذلك يقول دروفتى ان محمـــد على حدثه حديثـــا طويلا عن المتاعب التى يلاقيها من الباب العـــالى ، ومن وزرائه ، الذين لم يقدروا التضحيات البالغة التى قدمها لهم . وانهى حديثه بانهـم قوم ناكرون للجميل وان ثقته قد انعـدمت فى عدل وأمانة الديوان العالى وصدقه . وان عليـــه الآن ان يحترس وان يأخذ حذره وان يعمل قبل كل شيء على تأمين نفســـه ومستقبله فى مصر . وانه ـــ وهو أهم ما جاء فى حديثه هذا ـــ قرر منذ الآن السير تبعا للخطة التى لا تتعارض مع سياسة فرنسا ، وان ترتب على ذلك الخروج على الباب العالى والانشقاق عنه . وأعلن محمد على للقنصل صراحة عن استعداده لتنفيذ توجيهات فرنسا فى شأن

الموقف من اليونان · خلاصة الأمر وخلاصة الحديث ان محمد على مستعد لتنفيذ اتجاهات فرنسا ـ الانسحاب من اليونان ـ صراحة شرط تأييدها له ومساعدته اذا حاول الباب العالى الانتقام منه ·

والآن هل تحول محمد على حقا عن سياسته الأولى ؟ وهل انتوى الخروج صراحة على الدولة العثمانية ·· ؟ ان دورفتى بعد ذلك الحديث رأى ذلك وكتب بذلك لفرنسا ولسفير فرنسا فى استانبول · ولكن الأخير ـ كيليمنو Cuilleminot عارض دروفتى فيما استخلصه من حديث محمد على · وأرسل عدة رسائل أشار فيها الى أساليب محمد على الملتوية بحيث لايمكن التحقق من قرارة ما فى نفسه ولا ما يهدف اليه · ورأى السفير أن محمد على غير جاد فى ارسال الامدادات البحرية والبرية التى هدد بارسالها الى بلاد اليونان ، أيا كان موقف الدول الأوربية · وانه لم يرد بندائه لفرنسا سوى ايقاف تدخلها وتدخل القوى الأوربية الكبرى ضده بالقوة ·· وانه على تلك القوى الا تفلت من يدها الآن تلك الفرصة الطيبة المتاحة لها لتحديد الخطة التى ستتبعها ولوضع حد نهائى لمشكلة اليونان · أما بخصوص اعتقاد دروفتى بأن محمد على يعتزم التسليم باتجاهات الدول العظمى والخروج على الباب العالى · فان السفير يحذره من الذهاب فى الظن الى ذلك المدى البعيد · ويستند فى رأيه ذلك الى ان الباب العالى يستطيع باصداره فرمانا يعلن فيه خيانة محمد على ، ان يحرمه من المركز العالى الذى بلغه فى مصر وفى الامبراطورية العثمانية وفى العالم الاسلامى بصفة عامة ·· ذلك المركز الذى كان يهم محمد على الحفاظ عليه · وهذا هو عين ما كان الباب العالى يتصوره · اذ كان يعتقد أن محمد على لا يستطيع مخالفته جهارا أو المخاطرة بالانقلاب عليه ·

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

وخلال المداولات والمفاوضات السابقة الذكر بقى الموقف فى اليونان شبه مجمد .. وبرغم ان القوى الكبرى عهدت الى شيرش Church بالقيادة العامة البرية والى كوشرين Cochrane بالقيادة البحرية العامة وكلاهما من القادة المشهود لهما بالبراعة الا أنهما لم يقدما على أى خطوات ايجابيــة ومن ثم .... بقى الميزان لصالح تركيا ومصر فى اليونان .

رأى محمد على ان الدول الأوربية لم تستوعب الى تلك اللحظة مقاصده الدفينة ، التى عرض لها باسلوب مستتر فى الحوار الذى دار بينه وبين قناصلها ومبعوثيها خلال عدة لقاءات . فلا مفر له اذن من التحول من التلميح الى التصريح . وبناء على ذلك استدعى محمد على فى ١١/ يونيو ١٨٢٧ قنصل انجلترا فى مصر ، سولت، وأكد له صراحة رغبته فى الاستجابة لطلب الحكومتين البريطانية والفرنسية ، ألا وهو الانسحاب من بلاد اليونان . ولكنه اشترط ان يتم ذلك بصورة لاتثير شك الباب العالى فيه ولا تغضبه عليه .

وكيف ذلك .. ؟ اقترح محمــد على ان ترســـل انجلترا وفرنســـا اسطوليها وقواتهمــا الى الاســكندرية بــدلا مــن ارسالهما الى اليونان فى مظاهرة عسكرية تمثيلية لارهاب محمد على وتهديده . فان ذلك يتيح له المبرر المناسب للانسحاب من الحرب ومن اليونان دون اغضاب الباب العالى أو خسارته .

لم يلق ذلك الاقتراح قبــولا من انجلترا أو من فرنســا لماذا .. ؟ لاشك ان العامل الأول هو ان الدول الأوربية الثلاث انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا قد ارتبطت بمقتضى معاهدة لندن التىأشرنا اليها سابقا باتفاق محدد له أهداف واضحة وميدان معين ينحصر فيه نشاطها هو العمــل فى منطقة اليونان واحكام الحصار من حولها . وليس من السهل احداث تغيير سريع لذلك

التخطيط ، بالاضافة الى ما يترتب عليه من جهد اضافى ومن تكلفة ٠ ويمكن اضافة عامل آخر ألا وهو تشكك الدول الأوروبيـــة فى محمد على وفى مراميه وفيما يضمره دائما من نوايا مستترة ٠ فقد اعتمد كثيرا فى سياســـته فى مصر على عنصر الخداع ٠٠ خدع زعماء المصريين ، وخدع الباب العالى ورجاله ٠٠ ، وخدع المماليك ٠٠ فمن يدريهم بما يكون عليه موقفه اذا رفعوا الحصار عن جيشه واســـطوله الرابضين على أرض اليونان وموانيهـا ٠٠ أليس من الوارد أن ينتهز تلك الفرصة ويضرب الثورة اليونانيـــة ضربة قاضية ويضع أوربا أمام الأمر الواقع ويكسب بذلك جانب تركيا والنمسا وقد يبلغ بذلك تحقيق أحلامه ، التى يناشدهم معاونتـه فى الحصول عليها ، عن غير طريقهم ٠

وعلى كل فقد تلكأ محمد على فى ارســـال الأسطول المصرى المرابط فى الاسكندرية الى اليونان لأقصى فترة ممكنـــه ، برغم استعجال الباب العالى له وتحريض القنصل النمساوى ٠ وأخيرا فى ٦/ أغسطس ١٨٢٧ ، أى بعد ثمانية أسابيع تقريبا من لقـائه الصريح مع سولت فى ١١/ يونيو ، ســـمح للأسـطول المصرى بالاتجاه الى اليونان ٠ ومن سخرية القدر انه لم يمض على ابحاره يومين حتى وصل مبعوث بريطانى فى مهمة خاصة ٠ ذلك المبعوث هو الماجور كرادوك Major Cradock مرسلا من قبل كاننج وزير خاجية بريطانيا لابلاغ محمد على بصفة رسمية بقرار الحلفاء (روسيا + فرنسا + انجلترا) وفقا لمعاهدة لندن التى وقعوها فى ٦/ يوليو ١٨٢٧ ولاقناع الباشا بضرورة الانسحاب من اليونان ٠٠ ولكن ٠٠ بلا شروط ٠٠ ولا قيود !

أعلن هذا المبعوث خلال مقابلته لمحمد على أن الدول الأوروبية التى وقعت على معاهدة لندن ، قررت بصفة حاسمة عدم التدخل

الى جانب تركيا ضد الثوار اليونان . وانها على أتم استعداد لارسال قوات كبيرة الى الليفانت (شرق البحر الأبيض) لتنفيذ قرارها بالقوة ، اذا حاولت تركيا مقاومة قرارها واستمرت في عملياتها العسكرية لضرب الحركة الاستقلالية في اليونان . وان صداما يقع بين الدول الكبرى وتركيا أو بعبارة أصح ـ من الوجهة الواقعية ـ بين الدول الكبرى وجيش مصر وأسطولها ، قد تكون فيه نهاية آمال محمد علي وأحلامه ، بشأن التوسع في التجارة وتعزيز قوته العسكرية وأسطوله البحرى .

هذه هى خلاصة الرسالة التى كلف بابلاغها لمحمد على المبعوث البريطانى .وفى رأى كاننج وزير خارجية بريطانيا ، كما جاء فى التعليمات التى حملهـا كرادوك ، ان هذا التلويح أو التهديد المستتر فيه الكفاية لكبح جماح محمد على وطموحاته العديدة . خاصة وانه لا يضمر ولاء خالصا للباب العالى وليس له اتجاهات دينية أو طائفية واضحة .

وبرغم ان كرادوك نصح فى الوقت المناسب بتجنب اسلوب التهديد مع محمد علي الا أن بعثته لم تقابل بارتياح منه . لماذا ؟ لعل فيما جاء في تعليق سولت عن تلك البعثة خير جواب على ذلك التساؤل . اذ يقول ان البعثة طالبته باتخاذ موقف حيادى أى بعبارة أوضح الانسحاب من اليونان . الأمر الذى يوقعه حتما مع الباب العالى ورجاله ويعرضه لغضبه وربما لعزله أو لقيـام حرب بينهما ، دون ان تقدم له تعويضا مناسبا لتلك التضحية .

عقد محمد على عدة جلسات للحوار على مدى أسبوع جرى خلالها نقاش اتصف بالتحرر والصراحة . من ذلك ان سـولت نصحه بانتهاز فرصة اتصال الحكومة البريطانية المباشر به لكى

يحدد لها موقفه النهائى بكل صراحة . وكان الباشا على وجه العموم مثالا طيبا للدبلوماسى المرن . اذ أبدى خلالها استعداده للتنازل عن بعض أفكاره أو طلباته ، وصولا الى اتفاق مناسب مع الدول الكبرى وخاصة بريطانيا .

كان بين أقوال محمد على خلال الاجتماعات التى أشرنا اليها ، والتى عقدها ورجاله مع بعثة كرادوك ومعظمها تم بحضور سولت : .. « انى راغب منذ وقت طويل فى صداقة انجلترا وفى قيام حلف تجارى بينى وبينها ويجب عليها ان تدرك ان مصلحتنا مشتركة وان من واجبها الوقوف بجانبى ... » وكان مما أجاب به سولت ردا على ذلك .. ولكن تعبيرا عن رأيه الشخصى : « ... ان انجلترا لن تتخلى عنك عندما يجىء الوقت المناسب .. اذا وقفت الى جانبها واستجبت لما تطلبه ... » وعندئذ اندفع محمد على فى سرد أفكاره .. وأضاء وجهه ـ طبقا لما جاء فى وصف بعض الحاضرين للحوار ـ وبرقت عيناه .. وهو يقول « ان سوريا .. ودمشق .. وبلاد العرب .. خاضعة لى .. فاذا وجدت تأييدا من حكومتكم .. كما أرجو وأتمنى .. واذا اعترفت بى عندما تأتى الفرصة المناسبة .. كأمير مستقل .. فانى سأكون راضيا ومتعاونا .. » .

واثباتا لصدق نواياه أصدر أمرا فوريا لابراهيم باشا بايقاف جميع العمليات العسكرية للجيش المصرى وللأسطول وبخاصة ما تعلق منها بالتقدم نحو جزيرة هيدرا Hydra ، وذلك لحين اصدار تعليمات أخرى . وكما جاء فى الأمر فانه رأى اتخاذ ذلك الموقف « ارضاء » لانجلترا .. وكسبا لها الى جانبه » .

وعندما أبلغ محمد على أعضاء البعثة الانجليزية بأن مصر أوقفت عملياتها العسكرية فى اليونان ، أكد له أعضـــاء بعثة كرادوك انه يستطيع الآن الاطمئنـــان الى حسن تقـــدير انجلترا لموقفه هذا .

وفى حديث جانبى عبر كرادوك لبوغوص بك - وكان بمثابة وزير خارجية مصر خـــلال عهد محمد على - عن رأى شخصى له مضمونه ان مصر تستطيع كسب اهتمام السياسة البريطانية بها لو استطاعت الابتعاد عن تبعيتها للباب العالى .

وهكذا انتهت تلك المحادثات التى أوضح فيها كل جانب طلباته ورغباته صراحة . ولكن دون الوصول الى نتيجة واضحة أو اتفاق محدد يوضع موضع التنفيذ . وان وضـــح مما سبق ان انجلترا لم يكن لديها اعتراض على استقلال مصر عن تركيـــا ، أسوة بما تتمناه لليونان ، اذا تم ذلك على يد محمد على وبقيادته على ان يكون ذلك دون مساعدتها أو تدخلها . بينما كان محمد على يريد العكس ... أى يريد الحصول على تأييد انجلترا وتدخلها تمكينا له من الابتعاد بأى صورة من الصور عن التبعية لتركيا .

ولا شك ان محمد على كان كالواقع بين شقى الرحا .. فهو اذا أراد ارضاء الباب العالى كان عليه الاستمرار فى قتـــال ثوار اليونان .. ، وهنا قد يخاطر بجيشه وأسـطوله اذا واجها القوى الأوربية المتحالفة . واذا أراد ارضاء انجلترا وفرنسا ، كان عليه الانسحاب من اليونان .. وهنا قد يخاطر بالتعرض لغضب الدولة العثمانية والخلافة العثمانية معنويا وعسكريا .. ، دون حماية أو مساعدة مؤكدة من قبل انجلترا وفرنسا . وبعبارة أخرى هو

لايستطيع الانحياز لفريق دون ان يكون عرضة لسخط الفريق الآخر .. وهذه هى نقطة الحرج الكبرى فى موقف محمد على .

وكان المؤسف حقا فى أمر بعثة كرادوك انهـا لم تصـل للاسكندرية فى الوقت المناسب حتى تستطيع اقناعه بعدم ارسال الأسطول المصرى والتعزيزات الاضافية الى بلاد اليـونان حيث لقيا حتفهما (١٨) .

وفى الخامس من أكتوبر / ١٨٢٧ عزم محمد على على أسماع الباب العالى صوت العقل والحكمة فبعث الى ممثله فى استانبول طالبا منه توضيح الموقف للمسئولين فى الديوان العالى « .. فقد تكون تهديدات الدول الكبرى وانذاراتها .. كما يرى السلطان .. طبلا أجوف .. ولكن أليس من الوارد ان تكون جـادة فيهما .. ولو ان الأساطيل الأوربية المشتركة اشتبكت مع أساطيلنا فانى لا أتوقع لها الصمود أمامها .. فضلا عن أن مثل ذلك الاشـتباك سيؤدى الى فقداننا عددا يتراوح بين ٣٠ – ٤٠ ألف جندى وبحار نحن فى أشد الحاجة اليهم والى انقاذ أرواحهم .. أما القول باننا نضع كل اتكالنا على الله وهو يجرى .. فلا يكون الا بعـد قيامنا بالواجب واعداد أقصى ما يمكن من استعداد فى مثل هذه الأمور العسكرية » .

ولم يكتف محمد على برسالته تلك للبـاب العالى ، ففى الثامن من أكتوبر ١٨٢٧ ، أى بعد ثلاثة أيام أرسـل الى ابنـه ابراهيم ، « ... لو كان القتال بيننا وبين اليونان فقط لما منعتك من مواصلة القتال .. ولكن حيث ان الأمور تطورت بحيث أصبح علينا ان نواجه الدول الكبرى .. فيجب علينـا ان نأخذ جانب الحذر . فان استمرارنا فى القتال لايعنى احتمال ضياع اسطولنا

وخسارة ما لا يقل عن ثلاثين الى أربعين ألفـا من جنودنا وبحارتنا فقط . بل انه قد يعني تدهور علاقتنا مع الدول الأوربية الكبرى تدهورا نهائيا .. والموقف الذى أطلب منك اتخاذه غير صادر عن خوف أو تخاذل .. لأنه ليس من الحكمة ان نعـــادى ثلاث قوى كبرى ونحاربها » . ثم طلب محمد على من ابراهيم باشا تحاشى الاحتكاك بالقوات الأوربيـــة .. وعدم تنفيذ أوامر السلطان اذا تضمنت الاستمرار فى القتال ، مع الالتزام بتنفيذ أوامره الشخصية حرفيـــا .

الفصل الثامن

معركة نفارين البحرية

معركة نفارين البحرية

لم يكن محمد على برغم استعداده لتقبل الحلول السلمية ، بغافل عن أهمية تعزيز موقف مصر وقوتها فى بلاد اليـــونان ٠ وهكذا وصل المدد الاضافى الذى أعده ، الى مينـــاء نفارين فى ٩ سبتمبر ١٨٢٧ ٠ وكان مكونا من ٤٦٠٠ مقاتل على ظهر ٤٠ نقالة فى حماية اسطول مصرى بقيادة محرم بك مكون من ١٨ سفينة مصرية ، ١٦ سفينة تركية ، ٤ سفن تونسية ، ٦ حراقات ٠ وانضم الى هذه القوة مدد تركى قدم من الاستانة بقيادة طاهر باشا على ظهر ٢٣ سفينة ٠

ساء الحلفاء بطبيعة الحال وصول امدادات مصرية وتركية الى نفارين ٠ وحدث لسوء الحظ ما توقعه محمد على اذ ظهر على مسرح شبه جزيرة اليونان قادة الأســاطيل الحربيــة الثلاثة الانجليزية والفرنسية والروسية ٠ ولعل أبرزهم اندفاعا فى تحركاته التلقائية هو قائد الاسطول البريطانى كودرنجتون Codrington ٠ وقــد استطاع أولئك القواد احكام حصارهم حول اليونان ٠ واحــداث

نوع من الرقابة والضغط على تحركات الاسطولين المصرى والتركى ، وخاصة فى منطقة تمركزهما بنفارين ٠ الأمر الذى رفع معنويات الثوار اليونان ٠ وأتاح لهم مزيدا من القدرة على المقاومة والصمود ٠

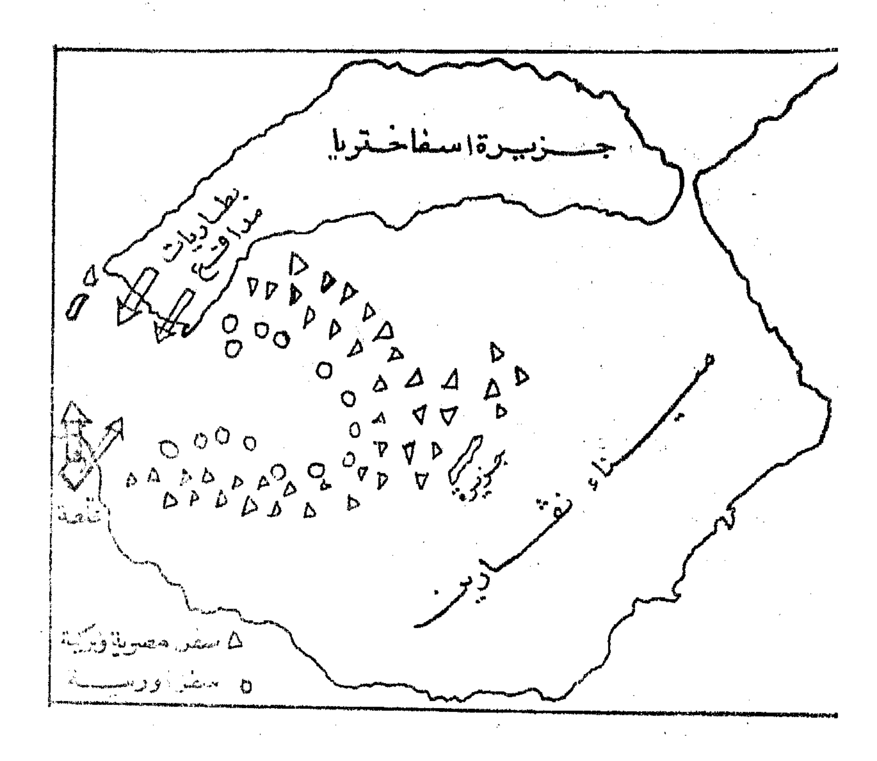
فى يوم ٢١ سبتمبر ١٨٢٧ قابل أميرال البر الفرنسى ، دى رينيه ، ابراهيم باشا ٠ وأبلغه رغبة الحلفاء (انجلترا + فرنسا + روسيا) فى اعلان هدنة تتوقف خلالها جميع العمليات العسكرية لحين الوصول الى تفاهم بين المسئولين على المستوى الأعلى فى دول الحلفاء وبين سلطان تركيا ومحمد على وفى ذلك كما أشار رينيه « ٠٠٠ الحفاظ على والدك ومكانته ٠٠٠ والنهضة التى أحدثها ٠٠٠ وخاصة أنه رجل مسن الآن ومختلف عما كان عليه فى أوائل ولايته : ولعل مصر الغنية أفضل لكم من اليونان وجزرها الخربة » .

وقد جاء رد ابراهيم صريحا : « ٠٠٠ ان لدى كل ما يلزم لاخماد الثورة اليونانية ولضرب جزيرة هيدرا ضربة قاضية وهى الوكر الأخير للحراقات اليونانية » ٠ وقبل أن ينهى دى رينيه تلك المقابلة أوضح بصورة قاطعة ، ارتباطه مع كودرنجتون باتفاق على منع الاسطولين المصرى والتركى من التحرك فى أى اتجاه ، عدا الاتجاه نحو الدردنيل أو الاسكندرية ٠

ازاء ذلك تم التفاهم على ألا يقوم ابراهيم باشا بتحركات أو عمليات جديدة ، الا بعد أن يتسلم من الباب العالى أو محمد على أمرا رسميا بذلك ٠ مع بقاء اسطوله بنفارين فى حالة تجمد تام ٠

فى ٢٥ سبتمبر زار الأميرال البريطانى كودرنجتون والفرنسى دى رينيه ابراهيم باشا زيارة أخرى شبه وديه ٠ أكد الاثنان خلالها على ضرورة الحفاظ على اتفاق الهدنة ٠ وعلق كودرنجتون على تلك الزيارة بأن الانطباع الذى خرج به منها يتلخص باختصار ، فى أن

معركة نافارين البحرية



ما وعد به ابراهيم باشا وما أبداه أمامهم من رغبة فى تنفيذ الهدنة لم يكن الا تظاهرا ٠

أما عن العرض الذى تقدمت به الدول الكبرى لثوار اليونان لانهاء القتال ، فأهم ما جاء فيه هو أن يقروا ويعترفوا بالسيادة التركية ، مع حصولهم على الاستقلال الذاتى ٠ وقد حاز هذا العرض قبول الثوار ٠ ولكن الباب العالى رفضه رفضا قاطعا ونهائيا ٠

وعلى كل فقد أدى ايقاف ابراهيم باشا للعمليات العسكرية فى اليونان ، بالاضافة الى ارتفاع معنويات الثوار اليونان وامكاناتهم بفضل التعزيز العسكرى والمعنوى للقوى الأوربية ، فضلا عن المتطوعين الذين تدفقوا من أنحاء أوربا على بلاد اليونان ، وبينهم سابقا على سبيل المثال الشاعر البريطانى المعروف لورد بيرون ٠٠٠ أدى ذلك الى انتهاز الثوار لفرصة السكون الذى صاحب الهدنة واستغلاله فى القيام بنشاط واسع فى خليج كورنث ٠ فحاصروا جزيرة كريت ونجحوا فى ابادة حامية عثمانية ٠ وترتب على ذلك النشاط تحرج مركز القوات المصرية فى باتراس Patras

وهنا رأى ابراهيم أن يتحلل من ارتباطه بالهدنة ، حيث ان الثوار اليونان لم يلتزموا بها ٠ كما أنه لم يتلق ردا من كودرنجتون عندما لفت نظره لذلك ومن ثم أبحر الى باتراس فى عمارة من بعض السفن الحربية الخفيفة ٠

اعتبر قواد الحلفاء ذلك التحرك بمثابة نقض للهدنة ٠ ولحق الأميرال كودرنجتون واسطوله بابراهيم باشا حيث التقى به أمام رأس باباس على مقربة من باتراس ٠ ورأى ابراهيم أن الحكمة تقتضى منه الرجوع الى نفارين تجنبا لاشتباكات ، حذره أبوه من التورط فيها ، وقد لا تتفق مع السياسة العليا خاصة لمصر ٠

ولكن موقف القـــوات المصرية فى باتراس ازداد تحرجا ازاء ضغط الثوار • ونظرا لاستحالة خروج ابراهيم بالاسطول الرئيسى لمصر حيث طوقت أساطيل الحلفاء ميناء نفارين ، لم يجـــد ابراهيم سبيلا لنجدة القوة المصرية وانقاذها الا بالزحف عن طريق البر على رأس جانب من جيشه • وأصدر تعليماته للأميرال محرم بك قائد الاسطول المصرى ، والأميرال طاهر باشا قائد الاسطول التركى ، بعدم التورط فى أى اشتباك أو احتكاك مع الأســـاطيل الدوليـــة المرابطة خارج نفارين •

وعندما علم قادة الحلفاء بمغادرة ابراهيم لنفارين أرسـلوا له بما يفيد اتهامه بنقض الهدنة المتفق عليها ••• ولكن هل كان على ابراهيم أن يلتزم بتنفيذ تلك الهدنة من دون الثوار ••• ؟ ولمـاذا لم يمارس أولئك القواد ضغوطهم على الثوار ، لالزامهم بالتوقف عن التحركات العسكرية ، كما ألزموا ابراهيم بذلك • وعلى كل فان رسالة قادة الحلفاء البحريين لم تصل ليد ابراهيم ، حيث كان كما ذكرنا متغيبا عن نفارين •

اتفق قواد الأساطيل البحرية التابعة للحلفـــاء . على دخول ميناء نفارين لارغام ابراهيم باشا على العودة • وفى ١٩ أكتوبر ١٨٢٧ اجتمعوا مرة أخرى بكودرنجتون على ظهر بارجتـــه آسيا • لتأكيد الاتفاق العام ولاعداد خطة دقيقة لعملية عســـكرية يمكن اتباعها فى حالة الاشتباك •

القائدان البحريان محرم بك وطاهر باشا اتخذا موقفا خاليا من الحكمة • لعل أقل ما يقال فيه انه بعيد تماما عن أصـــول الفن العسكرى ، فضلا عما به من جمود وسلبية • وكل ذلك استنادا الى اعتقادهما فى توفر النوايا الحسنة ، أو بعبارة أخرى فى تصورهما استحالة حدوث اشتباك أو قتال خلال الهدنة المتفق عليها وأكثر

من ذلك انهما لم يحاولا اتخاذ موقف الاستعداد لمواجهة أى طارىء وهو أضعف الايمان ·

أما أساطيل الحلفاء فقد تأهبت فى العاشرة من صباح ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ لتنفيذ الخطة التى أعدها قادتهم · وفى منتصف الساعة الثانية مساء ، أصدر كودرنجتون أمره ، منتهزا فرصة هبوب رياح شرقية مناسبة ، باقتحام البوغاز ·

وبدلا من أن يتصدى الاسطولين المصرى والتركى لأى سفينة تحاول اختراق البوغاز ··· وبدلا من أن تتولى مدافع القلاع على جانبى البوغاز أمر اغلاقه ، وهى كفيلة بذلك · اكتفى الأميرال محرم بك بمناشدة كودرنجتون ايقاف السفن المتقدمة لاختراق البوغاز · وبطبيعة الحال لم يرد كودرنجتون ازاء هذا التخاذل بأكثر من أنه لم يأت لتلقى أوامر وانما لالقاء الأوامر ·

اصطفت سفن الحلفاء التى اخترقت البوغاز على شكل نصف دائرة · الاسطول البريطانى فى الوسط والاسطول الفرنسى على يمينه والروسى على يساره · واقتربت جميع تلك الأساطيل ، فى تحد سافر واستفزاز واضح من الاسطولين المصرى والتركى وخاصة من سفينتى القيادة بهما ·

المعركة ذاتها ابتدأت فى منتصف الثالثة مساء واستمرت حتى الخامسة وكان من الواضح منذ البداية أن الزمام قد أفلت من يدى القائدين الشرقيين · وكودرنجتون نفسه علق على الموقف بأنه كان من الممكن أن تواجههم ، أى أساطيل الحلفاء ، صعوبة كبيرة لو عجل محرم بك قليلا بضرب النار ·

من البادىء ··· ؟ الاجابة على هذا السؤال بصورة قاطعة فيه صعوبة · فكلا الفريقين يرمى مسئولية بدء المعركة على الآخر

ابراهيم باشا صرح نقلا عمن حضروا المعركة بأن الفرقاطة البريطانية داتموث هى التى بدأت الاشتباك عندما حاولت الاستيلاء على حراقة مصرية ، فرفض رجالها التسليم لها فكان القتال ، الانجليز يذكرون أن رصاصة أطلقت من سفينة مصرية كانت السبب فى اشعال القتال ٠

على كل نحن نعلم مسبقا صعوبة تحديد المسئول عن اشعال القتال فى مثل تلك الحالات ، حيث يختلط كما يقال الحابل بالنابل ٠ وتختلف وجهات النظر وفقا لمكان المشاهدين أو المراقبين ٠ وانما الأمر الذى لا جدال فيه ، أن أساطيل الحلفاء باختراقها للبوغاز واقترابها من الاسطولين المصرى والتركى ، قد أتاحت فرصة للاشتباك ٠ وتعتبر المسئولة أولا وآخرا عن جميع الأحداث التى أعقبت ذلك ٠

المعركة كما رأينا لم تستغرق أكثر من ثلاث ساعات ٠ وقد اشتمل الاسطولين المصرى والتركى على ٦٢ قطعة حربية لم يقابلها سوى ٢٧ قطعة تابعة للحلفاء ولكن العامل الفعال فى المعركة كان للبوارج الكبيرة ٠ ولم يكن لدى الاسطولين المصرى والتركى منها سوى ثلاث مقابل عشر بوارج على الجانب الآخر ٠

اتبع اسطول الحلفاء خطة شبيهة بتلك التى اتبعها نلسون فى معركة أبو قير البحرية مع اسطول نابليون ٠ الخطة هى حصر سفن العدو داخل خليج ضيق ثم تركيز الضربات نحو كل قطعة من قطعه ٠ هذه الخطة شملت تحركات الاسطولين المصرى والتركى ٠ فاذا أضفنا لذلك أن سفن الحلفاء كانت أقوى وأحدث سلاحا وربما أرقى قيادة وأكثر خبرة كان من السهل التنبؤ بالنتيجة ٠ ان رجال البحرية سواء من المصريين أو الأتراك لم يتخاذلوا خلال ذلك القتال

كما لم يتخاذل رجال الاسطول الفرنسى فى معركة أبو قير البحرية ٠ ولكن النتيجة كانت حتمية فى الحالتين وهى هزيمة الجانب المحصور داخل خليج ضيق ٠ ولذا لا يحق لأى باحث غربى أو شرقى الاقلال من شأن بحرية مصر وتركيا فالهزيمة لم تكن نتيجة تخاذل وانما نتيجة ظروف المعركة ٠٠ الموقع غير المناسب ٠٠٠ السلبية ٠٠٠ تغيب القيادة ٠٠٠ تضارب التعليمات ٠

عاد ابراهيم الى نفارين حيث شاهد آثار المأساة وكيف هلكت السفن نسفا وغرقا فقرر اخلاء كثير من المواقع مع تركيز رجاله فى مدينتى كورون ومودون الى أن تصله أوامر أخرى ٠

قوبل هذا الحدث بابتهاج عظيم من جانب الثوار اليونان ٠ وقيل ان الدول الأوربية المتحالفة فوجئت به لأن اتفاقها كان قاصرا على استخدام أساطيلها وسيلة للضغط على الباب العالى ومحمد على لا للدخول فى معركة فعلية ٠ ولعل ما قيل لم يكن الا ذرا للرماد ٠ فان الدراسة المتأنية لتلك المعركة تكشف عن تحرش الأساطيل الأوربية منذ البداية بالاسطولين المصرى والتركى ، القابعين داخل خليج نافارين ، بأسلوب أكثر شبها بذلك الذى اتبعه نلسون مع الاسطول الفرنسى عام ١٧٩٩ فى معركة أبو قير البحرية ٠ وعلى أى الأحوال فان تلك المعركة ٠٠٠٠ سواء جاءت موافقة لخطة الدول الاوربية أو غير موافقة ٠٠٠٠ فانها حققت مأربها كضربة قوية لمركز الباب العالى ومصر فى بلاد اليونان ٠

والواقع أن هذه المعركة قضت على الكثير من أحلام محمد على وطموحاته ٠ كما أنها قضت على جانب كبير من المعدات العسكرية والسفن البحرية ، التى استنزفت موارد الشعب المصرى فى سبيل اعدادها ٠ فضلا عن القوة البشرية من المصريين الذين فقدوا أرواحهم

خلال المعركة . ولو أن بعثة كرادوك الانجليزية وصلت الاسكندرية قبل رحيل الاسطول المصرى بيومين لما تحرك ذلك الاسطول الى بلاد اليونان وما وقعت تلك الكارثة .... ، وما خسرت مصر ثلاثين ألفا من بين اثنين وأربعين ألفا من رجالها الذين أرسلوا لليونان . وما خسرت ١٩ قطعة بحرية من بين ٣١ قطعة غير ثلاثة أرباع مليون جنيه غرقت مع القطع البحرية وغير الناقلات التى تعد بالمئات .

لم يكن أمام الباب العالى وابراهيم باشا بعد تلك المعركة الا أن يتفاهما ، على ضرورة التراجع ابتعادا عن الاسطول الأوربى وعن ضغوطه .

أما عن محمد على فقد قرر أن يضع حدا لجميع الخطط الفاشلة التى جرته اليها السياسة العثمانية . وفى اليوم التالى لعلمه بأنباء معركة نافارين المحزنة استدعى قنصل انجلترا ليؤكد له مسئوليته عن سلامة وأمن جميع الرعايا البريطانيين فى مصر فى حالة نشوب حرب بين دولته والدولة العثمانية . وكان من أقوال محمد على له : « .... انى أعرف جيدا كيف أحتفظ بالسمعة الطيبة التى اكتسبتها عن عدلى واحترامى للحريات مهما تكن الظروف ... » وفى ذات اليوم أرسل محمد على لابنه ابراهيم آمرا اياه بايقاف جميع عملياته العسكرية ضد الثوار اليونان . وبطبيعة الحال انصاع ابراهيم لقرار أبيه . ولم يتحول عنه برغم جميع الضغوط الى أن تم الاتفاق على الانسحاب النهائى .

ومن أجل الاتفاق على الانسحاب زار أميرال البحر البريطانى كودرنجتون الاسكندرية فى ٦ أغسطس ١٨٢٨ حيث أجرى مفاوضات مع محمد على وقعت فى نهايتها معاهدة بينهما نصت على اخلاء القوات المصرية لبلاد اليونان بالشروط التالية :

١ ــ اعادة أسرى اليونان لوطنهم وتحرير من بيع منهم بمصر ٠

٢ ــ يتعهد الأميرال الانجليزى باعادة الأسرى المصريين واعادة القطع البحرية المصرية التى أسرت أثناء المعركة ٠

٣ ــ اخلاء القوات المصرية لبلاد اليونان على أن يتولى محمد على نقلهم على سفنه ٠

٤ ــ لا يكره اليونانيون المقيمون بمصر على الرحيل عنها كما لا يجوز ارغامهم على البقاء فيها ٠ ويسمح لمن يشاء من اليونان باصطحاب الجيش المصرى عند عودته لوطنه مصر ٠

وبمقتضى تلك الاتفاقية ، بدأ الجيش المصرى انسحابه الذى تم نهائيا من اليونان فى أكتوبر ١٨٢٨ ٠ أما بقايا القوات التركية فقد ارغمت على الانسحاب أيضا ، بعد انزال القوى الأوربية لبعض فرقها لتحقيق الجلاء التام عن اليونان ٠

أما عن سلطان تركيا فقد أصر على عدم الاعتراف بالأمر الواقع ٠ وقرر أن يقف ٠٠٠٠ لو أدى الأمر ٠٠٠٠ ضد جميع دول أوربا ٠٠٠ وانتهى به الأمر الى الاشتباك فى حرب قاسية مع روسيا دون أن يكون لديه الاستعداد الكافى لمواجهتها ٠٠٠٠ ومن ثم كانت هزيمته واضطراره للتوقيع على معاهدة أدرنة ، التى عرضت عليه فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٩ بعد أن احتلت الجيوش الروسية بعملية منفردة تلك المدينة ٠ ومع أن الجيش الروسى أعاد جميع الأراضى التابعة للدولة العثمانية فى البلقان ، التى سبق له احتلالها خلال الحرب ، الا أن تركيا تنازلت لروسيا فى المقابل عن جانب من أملاكها فى القوقاز ٠

وهكذا أغلقت مشكلة اليونان ٠٠٠٠ ولكن السلطان العثمانى نجح حقيقة فى استخدامها كوسيلة لاستنزاف تابعه المحسود

واضعافه . فمما لا شك فيه أن محمد على خرج من تلك المشكلة وهو أقل قوة وامكانية مما كان قبلها .

وقد نسب محمد على جميع الكوارث التى حاقت به الى السلطان « الذى أراد العمل معه على وجه استغلاله الى أقصى حدود الاستغلال ... ذلك السلطان الذى أثبت هو ورجاله أنهم أبلد من الحمير .. وانهم يتشبثون تشبث الخنازير .... » وبان له أن الدول الأوربية على اختلاف أهدافها وتباين مطامعها قد تتحد ... كما بان له أنه لكى يساوم ينبغى أن يكون لديه ما يساوم عليه .... فلم يكفه كورقة للمساومة ما أظهره من استعداد للجلاء عن اليونان ..... فهذا أمر سلبى ولابد من أمر ايجـــابى . وبان له أخيرا أن انجـلترا لا تتحمس .... كثيرا فى الأحوال العادية .. ، لاخضاع المسائل المباشرة والمشاكل المحدودة لنطاق المبادىء العامة . ومن ثم فبرغم ارتباطها مع النمسا ومترنيخ على مبـــدأ الحفـــاظ على الملـــكيات والامبراطوريات الشرعية لم تخضع موقفها فى اليونان لذلك المبدأ . ولم تتورع عن اتخاذ موقف مؤيد للتابع وهو اليونان ضد الدولة العثمانية صاحبة السيادة ، أو صاحبة الحق الشرعى فى السيادة على بلاد اليونان .

خلاصة القول أن محمد على .. على أهون الاحتمالات .. فقد الثقة فى امكان وضع سياسة مشتركة بين القاهرة واستانبول . وتأكد اعتقاده فى أن محمودا سلطان تركيا ورجاله يسيرون سيرا حثيثا نحو تدمير أنفسهم وتدمير الدولة العثمانية . فنجاح الثوار اليونان سيكون أكبر حافز للصرب ... والبـــلغار وغيرهم من القوميات العنصرية والدينية فى البلقـــان للانقــــلاب على الدولة العثمانية ، والاستقلال عنها . كما أن سياسة ذلك السلطان ورجاله

هى التى أدت الى ابتلاع فرنسا للجزائر ، وابتلاع القيصر نقـــولا للقوقاز وتقدمه نحو البلاد العربية ٠

والآن كيف يكون موقف محمـــد على ٠٠٠٠ ؟ انه يخشى على ولايته فى مصر ٠٠٠٠ وعلى كل بنائه الاقتصـــادى والاجتماعى والعسكرى فيها ، عبر سنوات طويلة كافح فيها مع شعبها وبخيراتها ومواردها ٠٠٠٠ فهل يترك كل هذا التراث لينتقل الى باشا آخر من باشوات السلطنة ليبدده كما هى عادة الباشوات وعملاء الأتراك ، ٠٠٠٠٠ ٠٠٠٠٠ أم يبحث جادا عن ضمانات لمصر ٠٠٠٠ التى أحبها وضمانات لبقائه فيها ٠

تلك الضمانات ٠٠٠٠ من وجهـــة نظره ٠٠٠٠ لا تتـــوفر الا بنشر نفوذه على المنطقة العربية ٠٠٠٠ مصر ٠٠٠٠ وبلاد الشام ٠٠٠٠ وساحل العرب ٠٠٠٠ والعراق ان أمكن ٠ لأنها تكمل بعضها اقتصاديا مما يسهل له مهمة الدفاع عنها ٠٠٠٠ على أن يكون ذلك ان أمكن ٠٠٠٠ داخل نطاق السيادة العثمانية ٠٠٠ ، ولو ظاهريا ٠ فان أبت ٠٠٠ فمستقلا عنها ٠٠٠ وخارج نطاقها الشرعى ٠ وفى تلك الحالة الأخيرة فلا مانع لديه من السعى لتأكيد مركزه دوليا ٠٠ وذلك بالحصول على تأييد الدول الأوربية واعترافها به ٠٠٠٠ تقديرا لمواقفه ٠٠٠٠ ولقوته ٠٠٠٠ ومدى ما يستطيع تقـــديمه لها من خدمات ٠ وعلى هذا المحور دارت معظم سياسة مصر ومحمـــــد على الخارجية فى الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر ٠

ولعل أول نجاح استطاع محمد على تحقيقه فى هذا الاتجـــاه هو اكتسابه فعليا وان يكن بصورة غير رسمية وغير مباشرة لاعتراف دولى بمركزه ومركز مصر وأهميته وأهمية مصر للعـــالم ٠ حيث فاوضته دول أوربا مباشرة ودون وســـاطة تركيـــا ٠ وأعلنت له

ولابراهيم رغبتها فى الحفاظ على العـــــلاقات الودية مع مصر . بل وفاوضته فى أن تبقى على الحياد اذا نشب قتال بين تركيا ومصر .

ان حرب اليونان صيرت مصر دولة مستقلة واقعيا عن تركيا . وليس أدل على ذلك من اتفاق أغسطس ١٨٢٨ السابق الذكر والذى تم عقده مباشرة مع مصر على يد بوغوص بك فى أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دولة أجنبية فى عهد محمد على .

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الحواشى

(١) ولد محمد على فى عام ١٧٦٩ أو ١٧٧٠ فى قوله . وهى قرية تقع على قمة تلك الصخرة الموغلة فى البحر على بعد ١٢٨ ك.م شرق سـلانيك ، ٣٣٠ ك.م الى الغرب من الاستانة . وكان والده ويدعى ابراهيم أغا يعمل رئيسا للحرس المكلف بحراسة الطرق . ويبدو أنه توفى ولمحمد على ما لا يزيد عن ١٥ عاما . قيل انه اشترك مع تاجر فرنسى عمل فى تجارة الدخان ، كما أنه قيل فى رواية أخرى أنه عمل مع رجال الأمن التابعين لحاكم قوله وفاز بثقته حتى عينه قائدا لحرسه . وذكر محمد على ذاته عن حياته الاولى أنه عين ضابطا فى الاسطول العثمانى ثم رقى الى رتبة يوزباشى لما أثبته من شجاعة أثارت حسد الكثيرين بما فيهم عمه ، فأرسله الى مصر مع الفرقة الألبانية .

(٢) خلال تلك المرحلة أيضا جاءت حملة فريزر البريطانية الى مصر وسارت الى رشيد . وكان مصيرها كما نعلم الهزيمة وهكذا فشل هذا الجنـاح من الخطة البريطانية للضغط على الدولة العثمانية . وبهذه المناسبة يجب علينا أن نوضح أن تلك الهزيمة انما تحققت بفضل شجاعة أفراد الشعب المصرى واستماتته ممن قذفوا بأنفسهم على رجال الحملة موجة بعد أخرى غير حاملين سوى أسلحتهم البدائية حتى أمسكوا بتلابيب الجنود البريطانيين الذين حاصروهم داخل أزقة رشيد يدا بيد . ومع ذلك فقد نسب معظم الفضل فى نصر رشيد ، كما ذكر الجبرتى لسواهم ، برغم أن الجانب الأكبر من الخسائر والتضحيات فى الأرواح كانت بين المصريين .

(٣) الظاهرة البارزة فى حياة الشعوب الاوربية فيما بين ١٨٣٠ ـ ١٨٧٨ هى قيام الثورات الوطنية والحركات القومية • ويتمثل ذلك بوضوح فى الحركة القومية الايطالية والحركة القومية الألمانية وفى النعرة القومية والوطنيـــة التى ظهرت بين الصرب واليونان والبلجيك والرومان • ولم يقدر لتلك الحركات القومية ـ اذا استثنينا الحركة القومية الألمانية ـ تحقيق أهدافها الا بفضل بعض المساعدات الخارجية ، خاصة تلك التى جاءت من انجلترا وفرنسا • أما روسيا فركزت تأييدها لصالح الشعوب البلقانية •

(٤) سمح الحكم العثمانى ببقاء الوحدات والجمعيـات تنفيـذا لسـياسة التسامح الديني ، التى نفذت تحت ضغط الدول العظمى وبتأثير نفوذها ، وبفضل ما وصل اليه أفراد الجالية اليونانية من مواقع النفوذ فى الاستانة •

(٥) تسرب هذا اللفظ الى العامية المصرية بواسطة المصريين العائدين من حروب اليونان وأصبح يطلق على الخارجين على القانون فى مصر ممن يعتمدون على السلب والنهب •

(٦) تحايل البحارة اليونان بأساليب مختلفة على القوانين الدولية خلال الحروب النابليونية وفترة الحصار القـــارى • من ذلك أنهم لجأوا الى رفع ، ما يناسب ما يواجهون من مواقف ، من أعلام الدول على سفنهم • فرفعوا أعلاما روسية خلال تجوالهم فى البحر الأسود وأعلاما تركية أو أوربية خلال تحركاتهم فى البحر الأبيض وذلك تأمينا لأنفسهم ولتجارتهم •

(٧) رفع لورد بيرون شعاره الشهير "We are all Greeks" وقد وصـــل الى ميسولونجى فى ٥ يناير ١٩٢٤ ليشترك فى انقاذ أحفاد الحضارة الاغريقية من الارهاب على حد تعبيره • وأشرف على تكوين فرقة من الثوار اليونان • أنفق عليها وعلى تزويدها بالسلاح والمؤن من ماله الخاص • أصيب أثناء وجوده باليونان بمرض عضال ، يغلب على الظن أنه التهاب رئوى • ومات طريح الفراش فى ذات المدينة وذات العام • ولعل أكبر خدمة قدمها لورد بيرون للثورة اليونانية هى نجاحه ، بفضل ما وضعه من شعر فى اهاجة مشاعر الشعب البريطانى واثارة عطفه على ثوار اليونان • مما أرغم الحكومة البريطانية على اتخاذ موقف ايجابى لصـــالحهم ، برغم سياستها التقليدية التى اتصفت بالتحفظ •

(٨) عاصر محمد على سلاطين الأتراك سليم الثالث ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧ ومصطفى الرابع ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ ومحمود الثانى ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ وعبد المجيد ١٨٣٩ ـ ١٨٦١ ومحمود الثانى هو ابن لمحظية فرنسية جىء بها الى الاستانة بواسطة القراصنة البربر . وقد وصل الى السلطنة فى عام ١٨٠٨ عقب انقلاب تم فى داخل العاصمة وكان له من العمر اذ ذاك ٢٣ عاما . استمر خلال ٣٠ عاما يحاول اتمام الاصلاح الذى بدأه سليم الثالث سواء فى الجيش أو الدولة . ولم يكن الاصلاح أمرا مقبولا فى ذلك الحين . أو من الأمور التى يمكن أن تتم فى هدوء وسلام وخاصة أنه كان موجها ضد الانكشارية . وعندما ثار الانكشارية بسبب اعتراضهم على اصلاح الجيش ، قدم لهم محمود الثانى وزيره الذى أشرف على تنفيذ سياسته الاصلاحية ضحية بريئة كسبا للوقت . وقد حارب محمود الثانى الاقطاع فى آسيا الصغرى وأعاد سيطرة الدولة العثمانية على العراق . وانتهز فرصة الثورة اليونانية وهزيمة الانكشارية فدبر المذبحة التى قضت نهائيا عليهم أى على الانكشارية بعد أن تسببوا فى تعطيل جميع المحاولات التى بذلت لاصلاح الجيش التركى عن طريق التمرد والعصيان ، وهكذا تخلصت الدولة العثمانية من طبقة الانكشارية فى عام ١٨٢٦ بفضل اندفاعات محمود الثانى ومغامراته . وقد كان من نوع الرجال الذين لا ترهبهم موجات التمرد . وعندما هزم فى معركة نفارين فى أكتوبر ١٨٢٧ أعلنها حربا مقدسة ضد « يونان أوربا المسيحيين » . وهذا أدى الى الحرب الروسية التركية ١٨٢٨/١٨٢٩ التى انتهت بعد هزيمة العثمانيين بصلح أدرنة . ثم دخل فى صراع مرير مع محمد على استمر حتى نهاية حكمه .

(٩) يمكن أن نسترشد بما جاء فى تقرير لمختار بك ناظر المعارف العمومية فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر عن المدارس التى كانت تمول الجيش المصرى بكوادره ، واعداد تلاميذها وذلك وفق البيان التالى :

مدرسة الفرسان	٣٠٠	تلميذ
« المدفعية	٣٠٠	«
« المشـــاه	٨٠٠	«
« الموسيقى	١٥٠	تلميذا
« المهندسخانة	٢٢٥	«
« الطب	٣٠٠	تلميذ
« الطب البيطرى	١٢٠	تلميذا

وللتعرف على نوعية الدراسة يمكن أن نأخذ كمثال مدرسة المشاة فى الثلاثينات حيث شملت المناهج وفقا لتقرير بورنج ٠

١ ــ مبادىء التحصين والهجوم على الحصون والدفاع عنها ٠

٢ ــ الطبوغرافية ورسم الخطط ٠

٣ ــ مناورات المشاة والتدرب على استخدام السلاح ٠

٤ ــ واجبات الخدمة الداخلية والشرطة ونظام الحاميات والأورط والبلوكات ٠

(١٠) يحضرنا فى هذا المجال ما ذكره الجبرتى فى حوادث عام ١٢٣٦هـ ــ أغسطس ١٨٢١ ــ اذ كتب « وفى منتصفه سافر الباشا الى الاسكندرية لداعى حركة الأروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطريق على المسافرين واستئصالهم بالذبح والقتل ، حتى أنهم أخذوا المراكب الخارجة من استانبول وفيها قاضى العسكر المتولى قضاء مصر ومن بها أيضا من السفار والحجاج ، فقتلوهم ذبحا عن آخرهم ومعهم القاضى وحريمه وبناته وجواريه وغير ذلك ٠ وشاع ذلك بالنواحى وانقطعت السبل فنزل الباشا الى الاسكندرية ، وشرع فى تشهيل مراكب مساعده للدونانمة (للمراكب) السلطانية » ٠

ولعل فى مثل هذه الأحداث ما يكشف لنا عن جانب من الأسباب التى شجعت مصر محمد على على قبول النداء الذى وجهه اليها سلطان تركيا لاخضاع ثورة كريت واليونان ٠ أن انتشار أعمال القرصنة فى البحر الأبيض كانت تعرض السفن المصرية ، التى بدأت تمارس نشاطها فى نقل حاصلات مصر وغلالها الى موانى أوربا ، للنهب والاختطاف ٠ بل بدأت تعرض الساحل المصرى الشمالى أحيانا لاعتداء الثوار ٠ وبذلك أصبحت الثورة اليونانية عاملا من عوامل ازعاج النشاط التجارى لمصر فى البحر الأبيض ٠ ذلك النشاط الذى أصبح يمثل عنصرا له قيمته وأهميته فى بناء الاقتصاد المصرى الحديث ٠

(١١) يمكن ترتيب أنواع المراكب المصرية من الأكبر للأصغر وفقا لما يلى :

(أ) **الغليـــون** : وهو يعادل البارجة ويطلق عليه أحيانا اسم قباق .

عدد المدافع	من ٧٤ ـ ١٠٦	
الطـــاقم	من ١٠٠٠ ـ ١٢٠٠	

(ب) **الفرقاطة** :

عدد المدافع	من ٥٤ ـ ٦٠
الطـــاقم	من ٥٠٠ ـ ٦٥٠

(جـ) **القرويت** :

عدد المدافع	حوالى ٢٤
الطـــاقم	من ٢٥٠ ـ ٣٠٠

(د) **الابريق** :

عدد المدافع	من ٦ ـ ١٨
الطـــاقم	من ١٥٠ ـ ٢٠٠

(هـ) **الغولتات** : وهى أشبه بالأباريق ولكنها طراز فرنسى

عدد المدافع	من ١٠ ـ ٢٠
الطـــاقم	من ٢٠٠ ـ ٢٥٠

(و) **الحراقة** : وهى من السفن الصغيرة التى كانت تشعل بالنار ثم توجه بواسطة دفع الريح لشراعها ، نحو سفن الأعداء فتصطدم بها وتشعلها .

(ز) **الكوتر** : بدون مدافع والطاقم حوالى ١٠٠ رجل على الأكثر .

(ح) **النقالة** : وهى مركب متوسط لنقل الجنود ومهماتهم وحمولتها مائة وعشرون جنديا بخلاف طاقم صغير بدون سلاح ولذا فهى تتحرك تحت حماية القطع الحربية .

(١٢) بيان تقريبى بالقطع الحربية المصرية فى المعركة نفارين وما فقدته منه بخلاف النقالات .

النوع	العدد	الفاقد	الباقى
فرقاطات	٤	٤	—
قراويت	١٠	٥	٥
أباريق	٦	٣	٣
حراقات	٦	٥	١
غولتسات	٥	٢	٣
	٣١	١٩	١٢

(١٣) هناك محاولة شبيهة بهذه فى تاريخ فرنسا الحديث أو تاريخ نابليون فعندما كلف نابليون من قبل حكومة الادارة بقيادة الحملة الايطالية ضد قوات النم فى أيطاليا . وتتابعت انتصاراته المذهلة ولم يكن له من العمر أكثر من ٢٧ عاه تخوف أعضاء حكومة الادارة من ارتفاع شعبيته وازدياد طموحاته . فقرروا ار القائد العريق كيلرمان ليشاركه القيادة . فأوقفهم نابليون عند حدهم بخطاب أصبح شهيرا جاء فيه « اذا كنتم ستضعون مختلف العقبات فى طريقى .. فلا تنتظ منى بعد الآن خيرا . فلكل أسلوبه الخاص فى ادارة العمليات الحربية والجنرال كيلر أكثر منى خبرة لكننا اذا عملنا سويا فلن يكون عملنا الا شيئا رديئا . فقـ من مستوى عادى يعمل بمفرده خير من قائدين عظيمين اذا اشتركا معا فى قي واحدة » .

(١٤) خسرو باشا هو أول ولاة مصر بعد جلاء الفرنسيين عنهـا واصـله مماليك القبطان باشا . وكانت ولايته على مصر هى أول عهدة بالمناصب الادارية العلي وصفه المؤرخ المصرى شفيق غربال بأنه « لم يفهم من فن التنظيم العسكرى أكثر جمع أنفار » من أخلاط الناس ووضع أبدانهم فى ثياب مقمطة تشـبها بالجي الفرنسى ، ولم يفهم من فن الادارة الا قطع الرؤوس » . وقد فشل خسرو فى اع تنظيم الشئون المالية والادارية لمصر ، كما لم يستطع اخضاع الأمراء المماليك بعد سيطروا على الصعيد وكان عذره فى ذلك أن ما لديه من قوات عثمانية لا تملك ـ وليس بينها فرسان ، ومن هنا تغلب المماليك فى الصعيد وتقدموا لكثير من أر الوجه البحرى وأدى هذا الى نقصان موارد خسرو المالية والى اختلال تموين القاهرة

فانقطع بالتالى دفع رواتب الجند فهـــاجوا وتمردوا كما جرت عادتهم فى مثل تلك الظروف وأنزلوا خسرو عن كرسيه • ولكنه هرب الى دمياط متحينا فرصة العودة الى مقره ومقر ادارته فى القاهرة ، الأمر الذى لم يتحقق • وعندما أصبح محمد على صاحب الكلمة العليا فى القاهرة قام بحركة تمثيلية هدفها اظهار ولائه للسلطان • فدعا خسرو باشا للعودة الى منصبه ومقر ادارته • وحدث ما كان متوقعا اذ لم يرض به الجند وهددوا بقتله فآثر ذاك السلامة وانسحب نهائيا من مصر • وكرر محمد على حركته المسرحية مع خورشيد باشا والى الاسكندرية • وبرغم اعتماد السلطان لولايته على مصر الا أن الجند تمردوا عليه وهاجوا ضده لفساد سلوكه وسوء تدبيره وحاصروه فى القلعة • وعقب ذلك نودى بمحمد على واليا على مصر فى مايو ١٨٠٥ • ووصل فرمان السلطان بالموافقة على ذلك • وكان فى ذلك ما قطع أحلام خسرو وآماله فى استعادة ولاية مصر • وقد نظر خسرو لمحمد على باعتباره المسئول الأول عن الاطاحة به ، بما دبره من دسائس ومكائد ضده • وعلى كل فقد ابتسم له الحظ ثانية بعد عودته لتركيا وارتقى فى مناصب الدولة وأصبح قبطان باشا كما رأينا • ولكنه بقى حاقدا على محمد على ، وحاول الكيد له ووضع العقبات أمامه حيثما وجد الى ذلك سبيلا •

(١٥) قيل ان من بين سكان جزيرة خيوس البالغ عددهم مائة وثلاثة عشر ألفا لم يبق على قيد الحياة منهم بالجزيرة أكثر من ١٨٠٠ فرد فقط • اذ قتل نحو ثلاثة وعشرون ألفا • وبيع سبعة وأربعون ألفا كرقيق • واستطاع الباقون الافلات هربا حيث لجأوا الى الجزر الأخرى •

(١٦) فى قضية ارسال الأسرى الى مصر يراجع كتاب :

جورج حداد : تاريخ أوربا والمسألة الشرقية ص ١٤٥ ـ حلب ـ ١٩٤٨ •

(١٧) توفى كاسلريه منتحرا نتيجة انهيار عصبى أصابه بفعـــل الارهاق فى ١٨٢٢/٨/١٢ •

(١٨) يمكن الرجوع لمزيد من المعلومات عن ذلك الموضوع للكتابين التاليين :

Douin : *Navarin* p. 150, Caire 1927.

Durand Viel : *Les Campagne Navales De Mohamed Aly et D'Ibrahim* Vol. I, pp. 378-79, 382-83. Paris, 1937.

مراجــع الكتــاب

١ ـ ادوارد جوان : **مصر فى القرن التاسع عشر** ـ القاهرة ـ ١٩٢١ ٠

٢ ـ أمين سامى باشا : **تقويم النيل وعصر محمد على** ـ القاهرة ـ ١٩٢٨ ٠

٣ ـ جورج حداد : **تاريخ أوربا والمسألة الشرقية** ـ حلب ـ ١٩٤٨ ٠

٤ ـ شفيق غربال : **محمد على الكبير ـ القاهرة** ـ ١٩٤٤ ٠

٥ ـ داود بركات : **ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا** ـ القاهرة ـ ١٩٣٥ ٠

٦ ـ عبد الرحمن الجبرتى : **عجائب الآثار فى التراجم والأخبار** جـ ٣ ، جـ ٤ القاهرة ـ ١٣٢٢هـ ٠

٧ ـ عبد الرحمن الرافعى : **عصر محمد على** ـ (طبعة رابعة) ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ ٠

٨ ـ عبد الرحمن زكى : **الجيش المصرى فى عهد محمد على** ـ

٩ ـ د. عزت عبد الكريم : **مجمل تاريخ مصر** ـ القاهرة ـ ١٩٤٥

١٠ ـ د. محمد فؤاد شكرى : **بناء دولة مصر محمد على** ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ .

١١ ـ Fisher S.N. : *The Middle East* New York, 1959.

١٢ ـ Miller W. : *The Ottoman Empire* 1801-1913. Cambridge 1913.

الخرائط

الفهرس

الموضـــوع

● صدر من هذه السلسلة :

١ ــ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان

٢ ــ على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ــ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ــ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال

٥ ــ غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع

٦ ــ هؤلاء الرجال من مصر جـ ١
لمعى المطيعى

٧ ــ صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد

٨ ــ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات

٩ ــ صحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس

١٠ ــ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ــ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

١٢ ــ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب

١٣ ــ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ــ مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ــ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الخربوطلى

١٦ ــ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

١٧ ــ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نصر فرحات

١٨ ــ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود

١٩ ــ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صابون

٢٠ ــ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د. محمد أنيس

٢١ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيق الطويل

٢٢ ــ نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ٢
توفيق الطويل

٢٤ ـ الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

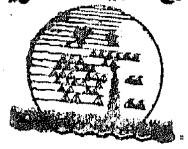
٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يونان لبيب رزق

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٠/٧٢٣٤

ISBN — 977 — 01 — 2535 — 0

يتحدث الكتاب عن احتلال محمد على لبلاد اليونان ، وهو يبدأ بتتبع استراتيجية مصر فى عهد محمد على خطوة خطوة ، ويحاول تحليل موقف الدولة العثمانية ــ التى كانت مصر جزءا من امبراطوريتها الواسعة وولاية من ولاياتها ــ بازاء أملاكها فى أوروبا ، وازاء شعوب البلقان التى لم تكف عن الثورة عليها . ويركز الكتاب على الزعامة الثورية اليونانية ضد الأتراك العثمانيين ، وكيف وقفت الدولة العثمانية عاجزة أمامها حتى لجأت الى مصر محمد على لإنجادها . ثم يناقش الخطوات والمراحل التى انتهت باحتلال محمد على لليونان ، وما أعقب ذلك من تحرك أوروبى عسكرى لمواجهته ، ويبرز محاولة محمد على تجنب الصدام العسكرى مع الدول الكبرى لولا سياسة الحكومة العثمانية الخرقاء التى دفعته إلى الالتحام بالقوى الكبرى ، فكانت الهزيمة فى موقعة « نافارين » الشهيرة يوم ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧ . وقد كان بعد تلك التجربة القاسية أن أخذ محمد على يتطلع الى الاستقلال بمصر عن السياسة العثمانية وتوجهاتها ، وهو ما نجح فيه نجاحا محققا .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب